بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشعراء من الآية ١إلى ٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

سورة الشعراء وهي مكية، ووَقع في تفسير مالك المروي عنه تسميتُها: سورة الجامعة.

{طسم * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة الشعراء:١-٩].

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تكلمنا عليه في أول تفسير سورة البقرة.

وقوله: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ} أي: هذه آيات القرآن المبين، أي: البيّن الواضح الجلي، الذي يفصل بين الحق والباطل، والغي والرشاد.

قوله {الْمُبِينِ} أي بيّن في نفسه، وهو أيضاً مبين لغيره، فهو مبين لحقائق التوحيد والإيمان، ومبين لأحكام الله -عز وجل- وشرائعه، ومادة "بان" تأتي قاصرة ومتعدية، قصيدة كعب بن زهير المشهورة "بانت سعاد" في أولها المقدمة الغزلية ويصف الناقة التي كان يركبها وفيه:

عِتقٌ مبين وفي الخدين تسهيل ***

مبين أي: بين واضح، وهنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **أي البين الواضح الجلي الذي يفصل بين الحق والباطل والغي والرشاد**، بين وهو أيضاً مبين لما سبق من حقائق الدين وشرائع الإيمان.

وقوله: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ} أي: مهلك {نَفْسَكَ} أي: مما تحرص وتحزن عليهم {أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}، وهذه تسلية من الله لرسوله -صلوات الله وسلامه عليه- في عدم إيمان مَنْ لم يؤمن به من الكفار، كما قال تعالى: {فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ} [سورة فاطر:٨]، وقال: {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [سورة الكهف:٦].

قال مجاهد، وعكرمة، والحسن، وقتادة، وعطية، والضحاك: {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ} أي: قاتل نفسك.

مادة البخع بمعنى الهلاك {لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ} أي: مهلك نفسك، {فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ}، {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} أي: تتأسف وتقتل نفسك أسفاً وحسرة على عدم إيمانهم، فالله -تبارك وتعالى- قال في سورة الإنعام {وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [سورة الأنعام:٣٥]، والآيات في هذا كثيرة جداً سواء في تسلية النبي -صلى الله عليه وسلم- أو في الإخبار بأن الله -تبارك وتعالى- أراد ذلك إرادة كونية، يعني وقوع هذا الضلال والإضلال من الكافرين كما قال الله -تبارك وتعالى- لما ذكر وحي الشياطين: {وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ

وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ} [سورة الأنعام:١١٣]، فهذا أمر أراده الله -عز وجل- ومن ثَم النظر في هذه المواضع ينفع كثيراً لمن أراد أن يحمل هماً في الإصلاح والدعوة إلى الله -تبارك وتعالى-، فقد يتضاعف همه وتزداد كربته وتكثر حسراته كلما نظر إلى ضلال مَن ضل، وانحراف مَن انحرف، ولكن ذلك وإن كان ناشئاً عن غيرة ومحبة لله -عز وجل- فإن مثل هذا ينبغي أن يوجه وأن يصرف إلى ما بيّنه الله -جل جلاله- بأن يعتبر الإنسان بما ذُكر من أن هذا شيئاً أراده الله لحكمة، وأن قلوب العباد بين أصبعين من أصابعه، يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وأن الله -جل جلاله- لو شاء لجعل الناس أمة واحدة، ولم يقع بينهم الاختلاف والتفرق والشر، ولم تقع الطوائف والفرق والضلالات ولم يقع أئمة، ولم يوجد هؤلاء الأئمة الذين يدعون إلى الكفر و محادة الله -عز وجل-، ولكن الله أراد ذلك ليبتلي الناس بعضهم ببعض، فالمؤمن ما عليه إلا أن يكون مستجيباً ومتبعاً لأمر الله -عز وجل-، ملازماً للصراط المستقيم، وما وراء ذلك ليس من شأنه {لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء} [سورة البقرة:٢٧٢]، وبهذا الذي ذكر تحصل المدافعة بين الحق والباطل، والحق محفوظ، وإنما يضر الكافر نفسه ويهلكها و يوبقها، فمن تخلى عن دينه وارتد عنه ولم يستجب ابتداءً فإنه لا يضر إلا نفسه {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ} [سورة يونس:٢٣]، ونحن بحاجة في مثل هذه الأوقات إلى مثل هذا النظر والتأمل في مثل هذه المواضع كثيراً، فلا يبقى الإنسان في غم دائم مستمر وحسرة، والله المستعان.

ثم قال الله تعالى: {إِنْ نَشَأْ نُنزِلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ} أي: لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرا، ولكنَّا لا نفعل ذلك؛ لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري؛ وقال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} [سورة يونس:٩٩]، وقال: { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} [سورة هود:١١٨-١١٩]، فنَفَذ قَدَرُه، ومضت حكمته، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم.

ثم قال: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ} أي: كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس، كما قال: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يوسف:١٠٣]، وقال: {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [سورة يس:٣٠]، وقال: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ ...} الآية[سورة المؤمنون:٤٤]؛ ولهذا قال تعالى هاهنا: { فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} أي: فقد كذبوا بما جاءهم من الحق، فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين، {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} [سورة الشعراء:٢٢٧].

ثم نبه تعالى على عظمته في سلطانه وجلالة قدره وشأنه، الذي اجترءوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه، وهو القاهر العظيم القادر، الذي خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم، من زروع وثمار وحيوان.

قال سفيان الثوري، عن رجل، عن الشعبي: الناس من نبات الأرض، فمن دخل الجنة فهو كريم، ومن دخل النار فهو لئيم.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً} أي: دلالة على قدرة الخالق للأشياء، الذي بسط الأرض ورفع بناء السماء، ومع هذا ما آمن أكثر الناس، بل كذبوا به وبرسله وكتبه، وخالفوا أمره وارتكبوا زواجره.

وقوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ} [سورة الشعراء:٩] أي: الذي عَزّ كلَّ شيء وقهره وغلبه، {الرَّحِيمُ} أي: بخلقه، فلا يعجل على مَنْ عصاه، بل يُنظره ويؤجله ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

قال أبو العالية، وقتادة، والربيع بن أنس، ومحمد بن إسحاق: العزيز في نقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره.

وقال سعيد بن جبير: الرحيم بِمَنْ تاب إليه وأناب.

قوله -تبارك وتعالى- **{أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}** الكريم: سبق الكلام عليه في بعض المناسبات فالمقام الكريم، والزوج الكريم -الزوج بمعنى الصنف هنا- بمعنى الشيء الحسن الطيب، يقال له ذلك، يقال: هذا نبات كريم، وهذا حجر كريم، وهذا معدن كريم، وهذا رجل كريم، وهكذا يقال: طعام كريم، ونحو هذا، الشيء الحسن الجيد يقال له: كريم، هذا هو المعنى الذي يمكن أن يفسر به مثل هذا اللفظ، والله تعالى أعلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشعراء من الآية ١٠ إلى ٣٧

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: {وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ * فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [سورة الشعراء:١٠-٢٢]، **يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران -عليه السلام- حين ناداه من جانب الطور الأيمن، وكلمه وناجاه، وأرسله واصطفاه، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه؛ ولهذا قال:** {أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ * وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ} **هذه أعذار سأل من الله إزاحتها عنه، كما قال في سورة طه:** {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي...} **إلى قوله:** {قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى} [سورة طه:٢٥-٣٦].

وقوله: {وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ} **أي: بسبب قتل ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر.**

{قَالَ كَلا} **أي: قال الله له: لا تخف من شيء من ذلك، كقوله:** {قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا} **أي: برهانا،** {فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ} [سورة القصص:٣٥].

{فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ} **كقوله:** {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [سورة طه:٤٦] **أي: إنني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- عن قيل موسى -عليه الصلاة والسلام-: {وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ} جاء مفسَّراً بقوله -تبارك وتعالى-: {إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا} [سورة القصص:٣٣]، والقرآن يفسر بعضه بعضا، وكان قتله للقبطي قبل النبوة، ولم يكن ذلك القتل مقصوداً، وإنما ضربه بيده فوقع ذلك في مقتل، وقوله -تبارك وتعالى-: {فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ} اذهبا: الخطاب لموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-؛ لأنهما مرسلان من الله -تبارك وتعالى- إلى فرعون ثم جمع الضمير في قوله: {إِنَّا مَعَكُم}، ولم يقل: "أنا معكما"، فهذا يمكن أن يكون من قبيل التعظيم، وقد جرت العادة أن يقال: خاطبَ المفرد بالجمع للتعظيم، أو تكلم بما يدل على الجمع للتعظيم، وهكذا خطاب الاثنين فإنه إذا خوطب بالجمع فإن ذلك يمكن أن يكون

للتعظيم، فإذا خاطب اثنين يقول: نحن معكم، أنا معكم أنتم، ويمكن أن يكون ذلك باعتبار أن أقل الجمع اثنان، وهذا قول جماعة من أهل العلم من أهل اللغة، ومن الأصوليين، وبهذا يقول صاحب المراقي:

أقل معنى الجمع في المشتهر *** اثنان عند الإمام الحميري

عند الإمام مالك -رحمه الله- و هذا يدل علية أدلة كما قال الله -عز وجل-: {فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ} [سورة النساء:١١]، والأم كما هو معلوم تُحجب حجب نقصان من الثلث إلى السدس بوجود أخوين، وهكذا في قوله -تعالى وتبارك-: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ} [سورة البقرة:١٩٧] على القول المشهور بأنها شوال وذو الحجة وعشر من ذي الحجة فهما شهران وعشرة أيام، ومع هذا قال: {أَشْهُرٌ} إلى غير ذلك من الأدلة، و هنا قال: {إِنَّا مَعَكُم} فاحتمل أن يكون باعتبار الجميع أو المجموع: الداعي والمدعو موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- بالإضافة إلى فرعون احتمل أن يكون هذا باعتبار المجموع، يعني موسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- ومن معهم، وهم بنو إسرائيل وكل ذلك يحتمل، والمقصود بذلك الجواب عن سؤال قد يرد: أنه عبر بالجمع أو بما يدل عليه وهما اثنان.

{فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، كقوله في الآية الأخرى: {إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ} [سورة طه:٤٧] أي: كل منا أرسل إليك.

يعني أنا رسول، هنا قال "رسولا" بالتثنية، فالرسول مصدر، أيضاً كذلك معنى الجمع، فرسول: أي رسل، وسبق أمثلة وشواهد على هذا من القرآن وكلام العرب، كقوله: {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ} [سورة النور:٣١]، يعني أو الأطفال {ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا} [سورة غافر:٦٧] أي أطفالاً.

{أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} أي: أطلقْهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك، فإنهم عباد الله المؤمنون، وحزبه المخلصون، وهم معك في العذاب المهين. فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون عما هنالك بالكلية، ونظر بعين الازدراء والغمص فقال: {أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا...} الآية، أي: أما أنت الذي ربيناه فينا، وفي بيتنا وعلى فراشنا وغذيناه، وأنعمنا عليه مدة من السنين، ثم بعد هذا قابلت ذلك الإحسان بتلك الفعلة، أن قتلت منا رجلا وجحدت نعمتنا عليك؟!.

قوله: {وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ} الفَعلة بالفتح للمرة الواحدة من الفعل، فَعلتك التي فعلتها هي قتل القبطي.

ولهذا قال: {وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} أي: الجاحدين، قاله ابن عباس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير.

المراد بالكفر هنا كفر النعمة؛ لأن الكفر يأتي في القرآن كثيراً في غير هذا المعنى، وهو الكفر بالله -تبارك وتعالى-، وفي بعض المواضع يحتمل هذا وهذا، كقوله: {وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ} [سورة البقرة:١٥٢]، وهنا قطعاً المراد به كفر النعمة؛ لأن فرعون أصلاً يمتن عليه بإنعامه عليه وتربيته قال: {وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} يعني من الكافرين بنعمتي عليك، وليس المقصود الكافرين بالله -تبارك وتعالى-، وليس المقصود به أيضاً الكافرين بالإيمان بربوبية فرعون؛ لأنه لم يتطرق لهذا هنا.

{قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا} أي: في تلك الحال، {وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} أي: قبل أن يوحى إليّ، وينعم الله عليَّ بالرسالة والنبوة.

فقوله: {وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ} أي: الجاحدين يعني لنعمتي، كفر النعمة، وهنا يمكن أن يفسر الكفر بمعنى الجحود، وجحود النعمة سترها وتغطيتها، وعدم الإقرار والاعتراف بها، والكثير من المفسرين لاسيما في المختصرات إذا ذكروا الكفر قالوا: إنه بمعنى الجحود في القرآن، عموماً الكفر بمعنى الجحود وهذا تفسير ناقص؛ لأن الكفر قد يكون بسبب الجحود وقد يكون من جهة أخرى للشك أو الإعراض، أو يصدر منه ما يكون مكفراً فيكون ذلك كفراً، ولا يختص بهذا النوع، فكثير من المفسرين تجدهم يعبرون عن الكفر بمعنى الجحود، ويطرد هذا في تفسيرهم، وهذا غير دقيق، وهو كثير في المختصرات، كما أنهم يفسرون الإيمان بالتصديق، بعضهم يذكر في أول التفسير حقيقة الإيمان ثم بعد ذلك يكتفي –اختصاراً- حيث جاء ذكر الإيمان بالتعبير عنه بالتصديق، مع أن العبارة ليست دقيقة؛ لأن الإيمان حتى في اللغة يختلف عن التصديق، والإيمان أخص من التصديق، وهو تصديق خاص على الإقرار، والإذعان، فالتصديق بمجرده لا يكون إيماناً والله -عز وجل- يقول: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا} [سورة النمل:١٤]، هذا في نفوسهم، وأما على الألسن فقد يصدق أنه لا يذعن كقول أبي طالب:

ولقد علمتُ بأنّ دينَ محمدٍ *** من خيرِ أديان البريّة دينا

ومع ذلك لم يكن مؤمناً؛ لأنه لم يحصل منه الإذعان فهو تصديق انقيادي بهذا القيد، نعرّف الإيمان ونعبر عنه بالتصديق فنضيف على الأقل هذه الإضافة فنقول: تصديق خاص تصديق انقيادي، تصديق بمعنى الإيمان هو بمعنى الإقرار والإذعان، لابد من إذعان القلب وانقياده ولكن هذا يطول في التفاسير المختصرة كلما جاء عند الإيمان مثلاً قال: {أَوَلَمْ تُؤْمِن} [سورة البقرة:٢٦٠] فيأتي بكلام طويل هو يريد أن يفسر بكلمة، بالمختصر لاسيما مع كثرة تكرر هذه اللفظة، على كل حال هذا تنبيه أظنه مفيداً؛ لكثرة ما يرد وما يحتاج إليه خاصة في المختصرات في كتب التفسير فليتنبه لهذا، أظن أن الاختصار لا يكون عذراً لاختزال مثل هذه الحقائق الشرعية العظيمة الإيمان والكفر، لو كانت القضية دون ذلك يمكن أن يتساهل فيها، الأمر يسير، الأمر كذا، العرب تعبر -يعني تتوسع في العبارة-، السلف يفسرون بما يقرب المعنى، لكن الإيمان والكفر لابد من معرفة حقيقته فلا نقتصر على تعريفه بالجحود يعني الكفر، والإيمان بمجرد التصديق وإلا فإن هذا قول المرجئة، ولا أقصد أن من كتب هذا أنه من المرجئة، لا.

{فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ} أي: **الحال الأول انفصل وجاء أمر آخر، فقد أرسلني الله إليك، فإن أطعتَه سلمت، وإن خالفته عطبت.**

قوله: {قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا} أي في تلك الحال هو يعترف بهذا يقول: أنا لا أنكر هذا، فعلتها، {وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ}، قوله: {وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} قال: **أي قبل أن يوحى إليّ وينعم الله علي بالرسالة والنبوة**، معنى هذا أن الضلال هنا ليس معناه الضلال المعروف الذي يرد على سبيل الذم في كتاب الله -تبارك وتعالى- كقوله في سورة الفاتحة مثلاً: {غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ} [سورة الفاتحة:٧]، فالضلال هنا يختلف عن الضلال هناك، فقوله: {وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ} يحمل على المعنى اللغوي؛ لأن الضلال يكون بمعنى الذهاب عن حقيقة الشيء يقال له: ضلال، فكل ذاهب يقال له: ضل، تقول: ضل الماء في اللبن، يعني إذا خلط به ومزج للغش، فإنه يخالطه ويمازجه بحيث لا ينفصل ويتبين، والمقبور يقال فيه: ضل أو أضل، كقول القائل:

"فَآبَ مُضلّوه بعينٍ جليّة"، هذا الميت مضلوه أي الذين دفنوه وغطوه بالتراب، ومنه: {أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ} [سورة السجدة:١٠]، يعني انمحت آثارنا وأجسامنا تحللت في التراب، {أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ} وهكذا قول إخوة يوسف لأبيهم -عليه الصلاة والسلام-: {تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ} [سورة يوسف:٩٥] لو قالوا في: ضلالك بقصد الذهاب عن الإيمان لكان ذلك كفراً؛ كيف يقولون مثل هذا الكلام لنبي؟!، لكن المقصود به في ضلالك يعني الذهاب عن حقيقة ما جرى ليوسف -عليه الصلاة والسلام- هذا المقصود بالضلال، فهنا قال: {فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ}، وابن جرير -رحمه الله- يفسرها بالجاهلين هنا، إذاً من الضالين يعني الجاهلين قبل أن يوحى إليّ في تحريم القتل، والله -عز وجل- يقول لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} [سورة الضحى:٧]، ومعلوم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لم يكن على دين قومه ولكن "ضالاً" أي ذاهباً عن حقيقة الوحي، ولم ينزل الله -عز وجل- عليه شيئاً -والله تعالى أعلم-، وهذا هو المعنى الذي يمكن أن تحمل عليه الآية، والله أعلم.

وقوله: {فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا} تغيرت الحال، وهذا الحكم فسره بعض السلف بالنبوة و الوحي، وبعضهم يفسر ذلك بالتوراة، وهذا لا يختلف عن الذي قبله، فالحكم هو التوراة وذلك مما أرسله الله به، أنزل عليه التوراة، ما أنزل على محمد -صلى الله عليه وسلم- هو القرآن فهو داخل في ذلك، وبعضهم يقول: هو العلم النافع، هذا الذي يفسر به الحكم هنا {فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا} أي: علماً، وهذا أعم يدخل فيه التوراة وما أوحاه الله -عز وجل- إليه مطلقاً، فهذه الأقوال غير متخالفة أو غير متناقضة، وهي متقاربة فلا شك أن موسى -عليه الصلاة والسلام- حينما ناداه الله عند الطور، وأوحى إليه، وأرسله تغيرت الحال، وصار نبياً من أنبياء الله -عز وجل.

ثم قال موسى: {وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} أي: وما أحسنتَ إليّ وربّيْتني مقابل ما أسأتَ إلى بني إسرائيل، فجعلتهم عبيدا وخدما، تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيتك، أفَيَفِي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأتَ إلى مجموعهم؟ أي: ليس ما ذكرتَه شيئا بالنسبة إلى ما فعلتَ بهم.

يحتمل أن يكون كلام موسى اعتراضاً على فرعون وأن هذه ليست بنعمة، ويحتمل أن يكون إقراراً بهذه النعمة، فإذا كان اعتراضاً فموسى -عليه السلام- يعترض عليه ويقول: تمتن عليّ بأن عبدت بني إسرائيل، {أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا}، فلو كانت الأوضاع عادية لما حصل ما حصل، ولكن لأنه كان يستعبد بني إسرائيل يقتل أبناءهم؛ لإضعافهم وإخضاعهم، ويستحيي نساءهم يبقي البنت حية فيهينها ويذلها، ويعملها في الأعمال الشاقة فتكون أسيرة بيد عدوها فهذا من أعظم الغبن والإهانة والابتذال والتسلط فهو يقول: أنا ما وصلت إليك أصلا، وما صرت إلى قصرك إلا لاستعبادك لبني إسرائيل، حيث ألقته أمه في التابوت بوحي من الله -عز وجل- حتى تقاذفته الأمواج ووصل إلى فرعون، فيقول: هذه نعمة تمنها عليّ أن عبدت بني إسرائيل فصار الأمر إلى ما صار إليه وجرت الأقدار بأن كان خلاصي ونجاتي من القتل بهذه الطريقة التي لم تكن مأمونة لولا أن الله -عز وجل- أراد ذلك و اختاره، وإلا فإن الإلقاء في اليم يعني الهلاك، ولكن قد تأتي النجاة والحياة والفلاح الكامل بأسباب العطب والهلكة إذا أراد الله ذلك، فعلى كلام ابن كثير يكون هذا المعنى، أي أفَيَفِي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم؟ يكون بمعنى الاعتراض، ولكن هذا الاعتراض

كيف يعبر عنه؟ يمكن أن يعبر عنه فيما ذكرته آنفا، وهذا ذكره بعض أهل العلم، فما وصلت إليك إلا بسبب العذاب والاستعباد والامتهان، ويمكن أن يعبر عن هذا بعبارة أخرى كما قال ابن كثير -رحمه الله- **{وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ} هذه ليست بنعمة إن أحسنت إلى رجل واحد وابتذلت أمة كاملة،** فهذا يمكن أن يعبر به عن هذا الاعتراض.

ويمكن أن يقال: هذا إقرار واعتراف، فكأنه يقول له: **{وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ}**، ابن جرير يرى أن هذا اعتراض، أقر بالنعمة **{وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ}**، ثم يقول: **{أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ}** وتركتني فلم تستعبدني، والفرق واضح أن هذا إقرار موسى -صلى الله عليه وسلم- لما قال: **{أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا}**، قال: **{وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ}** ونجوت أنا من ذلك فتربيت عندك، ونجوت من القتل وتربيت في قصر الملك، وفرعون لا يرضى بهذا؛ لأنه رب، المقصود أن هذا على قول ابن جرير أنه إقرار واعتراف والآية تحتمل هذا وهذا، ولكن الذي أظنه أقرب للسياق -والله أعلم- أنه اعتراض وليس بإقرار **{وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ}** فهذه ليست بنعمة، تستعبد قومي وتمن عليّ أنك ربيتني في الصغر، لم تحصل هذه التربية إلا بسبب القهر والتسلط والإذلال والإهانة وابتذال أُمةٍ كاملة، كان يقدر الذين خرجوا مع موسى -صلى الله عليه وسلم- من مصر بستمائة ألف في أكثر الروايات، وبعضهم يقول: كانوا اثنتي عشرة قبيلة، أسباط وكل سبط عليهم نقيب ولما انفلق البحر انفلق على عددهم، وكل سبط منهم اثناعشر ألفا، فالحاصل أنهم عدد كثير فحصل لهم هذا الامتهان، والآية التي في البقرة سبق الكلام عليها **{وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ}** [سورة البقرة:٤٩] والاستحياء قد يتبادر إلى الذهن بأنه ترك البنت حية، وهو أخف من قتل الأولاد، لكنهم لا يتركون البنت عند أهلها تبقى حية تعيش كما تعيش كل البنات في كفالة وليها، ويرعاها و يحوطها، وإنما يُبقي البنات من أجل الابتذال والخدمة والامتهان فهذا أشد من قتلها عندما تصير إلى عدوها يهينها ويذلها، وتعمل في الأعمال المهينة في الخدمة، والأشياء التي يتنزه عنها الفراعنة يقوم بها بنو إسرائيل.

{قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} [سورة الشعراء:٢٣-٢٨].

يقول تعالى مخبرًا عن كفر فرعون، وتمرده وطغيانه وجحوده، في قوله: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}، وذلك أنه كان يقول لقومه: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [القصص:٣٨]، **{فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ}** [سورة الزخرف:٥٤]، **وكانوا يجحدون الصانع -جل وعلا- ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: {إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** [سورة الزخرف:٤٦]، **قال له: ومَنْ هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي: هذه الآية كقوله تعالى: {قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى}** [سورة طه:٤٩-٥٠] .

ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم؛ أن هذا سؤال عن الماهية، فقد غلط؛ فإنه لم يكن مقرًا بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحدًا له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه، فعند

ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين: {قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} أي: خالق جميع ذلك ومالكه، والمتصرف فيه وإلهه، لا شريك له، هو الله الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار، وجبال وأشجار، وحيوان ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون.

هذا الكلام الذي ذكره الحافظ ابن كثير تجده كثيراً في كتب الاعتقاد عند المتكلمين، ونقله بعض أهل السنة لمناقشته كما في شرح العقيدة الطحاوية تجد ذلك مفرقاً في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وغيره وذلك أنه قال: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}، ولم يقل: ومن رب العالمين؟ من هو؟ ومعروف أن "من" تستخدم للعالم أو لمن من شأنه أن يعلم، ويعبرون كثيراً ويقولون: العاقل، ولكن ذلك لا يوصف به الله -تبارك وتعالى- فما كان من شأنه العلم يقال: مَن، وليس السؤال ومن رب العالمين؟ فتقول: هو الله مثلا؛ لأن السؤال عن الماهية. فابن كثير -رحمه الله- يعترض، وهذا الاعتراض صحيح، وهو أنه لم يكن يسأل عن الماهية؛ لأن الذي يسأل عن الماهية إذا كان يقر بالله -عز وجل- فإنه سيسأل عن التفاصيل، هو لا يقر بالله ويقول: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [سورة النازعات:٢٤]، ولم يكتف بقوله: {أَنَا رَبُّكُمُ} بمعنى السيد أو المتصرف، بل زاد {الْأَعْلَى} يعني ليس هناك رب سواه فصرح بهذا المفهوم بقوله: {مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي} [سورة القصص:٣٨]، فما نافية وإله نكرة في سياق النفي وسُبقت بمِن، وهذا من الظهور في العموم والتنصيص الصريح في العموم، فهذا لا يحتمل شيئاً آخر، ما علمت لكم من إله، لا إله صغير، ولا إله كبير غيري، فكأنه يقول: أنا الإله الواحد، بل أقوى من هذا، أقوى صيغة في الحصر هي النفي والاستثناء، وهنا يقول لهم بغير هذه الصيغة، لكنها بصيغة صريحة قوية: ما علمت لكم من إله غيري، نفي للعموم فالشاهد أن فرعون لم يكن يؤمن بالله أصلاً ويقر به حتى يسأل عن حقيقته وإنما كان يقول: وما رب العالمين؟ يعني مَن رب العالمين؟، وأحياناً يعبر بهذا عن هذا يعني يعبر بمثل ما عن مَن شأنُه أن يعلم، والعكس موجود، وإن كان أهل اللغة يذكرون مقامات ثلاثة، وبعضهم يذكر أربعة مقامات يعبر بهذا إذا حصل شيء منها، لكن ذلك ليس بلازم، وهذه القواعد النحوية التي تذكر هي أغلبية، وهم يقرون بهذا، ومبنى ذلك على الاستقراء والتتبع، ولكن يخرج منها أشياء وعند العرب معلوم أنها تلقي الكلام على عواهنه، ولا ينقرون فيه التنقير الذي حصل للمتأخرين، والقرآن نزل بلغة العرب، {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ} من هو هذا الإله الذي تدعيه؟ فلم يكن السؤال عن الماهية، والذين يقولون: إن السؤال عن الماهية يقولون: إن موسى ما أجاب على السؤال، وإنما أجاب عن أمر آخر، لاحظْ قال: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} يعني كأنهم يريدون أنه لو أجاب موسى عن السؤال بعينه لبين لهم الماهية، وهذه فلسفة وفتنة يتعجب الإنسان عندما يقرأ كتب هؤلاء أو يقرأ في التاريخ وما جرى من الاختلاف في مثل هذه القضايا وكثرة اللغط فيها، لكن الله أراد ذلك وشاءه لحكمة عظيمة وإلا فستستغرب كيف يُقبل كثير من الناس من المنتسبين للعلم على مثل هذه الأمور؟ هذا أمر عجيب لو شاء ربك ما فعلوه فسبحان الله العظيم!، وفي كل زمان يأتي ما يشغل الناس و ينصرفون به عن علوم الكتاب والسنة، وانظر إلى تهافت الكثيرين اليوم على القراءة في كتب لا تدلهم على الله، ويظنون أنهم على شيء، كتب لأناس كان بعضهم على مذاهب كفرية مثل الاشتراكية وغيرها، ثم أظهروا شيئا من التشاغل بقضايا الحضارة وما أشبه ذلك، فتهافت كثير من

المثقفين -إن صح التعبير- على مثل هذه الكتابات التي يصيب طالب العلم -الذي نور الله بصيرته وقلبه- الغثيان حينما يقرأ فيها، وفي العبارات المولدة الكثيرة التي يلوكونها ويرددونها يمجدون فيها ما لم يعظمه الله ولا رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وتنقض عرى الإيمان من الولاء والبراء، وللأسف تختزل حقائق الدين و تطمس معالمه، ويظن أنه بهذا من الوسطيين وأنه يبصر مالا يبصره غيره وأن غيره متشدد ضيق الأفق، وهذه الكتابات كثيرة والله يصلح الحال والله المستعان؛ ولهذا نقول: من أفضل العلاج لمثل هذه القضايا الاشتغال بعلوم الكتاب والسنة، وتلقي ذلك بطريقه صحيحة، هذا هو الطريق، الإقبال على قال الله، قال رسوله، بفهم السلف الصالح -رضي الله تعالى عنهم- لا بفهم هؤلاء المنحرفين اللذين لم يتعلموا العلوم الشرعية أصلاً، ليسوا من العلم في قليل ولا كثير، ويأتي يتكلم عن قضايا الحضارة وقضايا كبيرة تتعلق بالعلاقة بالكفار، وينظر في قضايا الشريعة، ويوهن من السنة، بل ويطعن في القرآن، ومثل هذا سيكون حائلا -كما وقع عند المعتزلة وغيرهم- دون القبول عن الله وعن رسوله -صلى الله عليه وسلم-، فالشاب إذا تربى على هذه الكتب مثل كتب الجابري وغير الجابري ما الذي يحصل عنده إذا قلت له: قال الله، قال رسوله، فإذا لم يطعن في القرآن أصلاً فإنه يقول نحن نقرأ النص بقراءة أخرى، لسنا ملزمين بقراءة السلف، يقصد بذلك الفهم، فالفهم بحسب المعطيات المتاحة لنا في هذا العصر وكل عصر له قراءته، هكذا يقولون، فلا تحتج لي بفهم وتقول لي: قال أبو جعفر بن جرير وهو مثلي ومثلك، ولا تقل لي: قال مجاهد ولا قال عكرمة ولا تقل لي قال ابن عباس، بل ولا قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ لأن هذه الأحاديث جاءتنا بأسانيد ورواة، والرواة هؤلاء قد يخطئون، وقد يقعون في الوهم، فتتغير العبارة، وصار مثل هذه الأمور حائلا دون القبول لنصوص الوحي، وهذه مصيبة كبيرة وفتنة اليوم، للأسف قد لا يتساقط هؤلاء الشباب في الشهوات كالخمر والزنا، ولكنه يقع فيما هو أعظم من هذا بهذه الانحرافات أنا ما أقول الفكرية، أقول الاعتقادية فيصير إلى حال النفاق و لربما الزندقة إذا توسع في هذا الأمر، والناس بين مقل ومكثر، ووصل الأمر ببعضهم إلى إنكار الحدود الشرعية كإنكار حكم الله -عز وجل- في حياة الناس، وجعلوا الدين يختص بالصلاة والعبادات البدنية، فالأولون اشتغلوا وتهافتوا على العلوم الكلامية، علماء، ولما قال أبو حامد الغزالي: إنه لا يوثق بعلم من لم يدرس المنطق، فتهافتوا على دراسة هذه العلوم ليثبتوا أنهم حققوا شرط الاجتهاد والتحقيق في العلم، فصاروا يدرسون هذا العلم، علماء، وبعضهم وصل بهم الأمر إلى حالٍ رُمي معها بالزندقة، كما قيل عن أبي حامد الغزالي لما درس الفلسفة، وفي آخر عهده تخلى عن هذه الأمور وأقبل على العبادة، وذهب إلى بيت المقدس، واعتزل الناس بعد هذا الطواف، والتطواف الكثير حصل لجماعة، وبعضهم صاروا فلاسفة ملاحدة، ووقع لهم كفريات لقضايا تتعلق بالإلهية والنبوة والوحي وأمور كثيرة، هؤلاء ينتسبون إلى الإسلام -والله المستعان-، أشياء عجيبة، فحينما يوزن الكتاب بالذهب، أي الكتاب الذي يترجم فتهافت الناس على الترجمة، وصارت موضة العصر كل الكتب المترجمة، والمثقف هو الذي يقرأ كتاباً مترجماً، وإلى عهد قريب كان الغرب يقولون: إن المسلمين حفظوا لنا كتب الفلسفة اليونانية، كانت تدرس في جامعاتهم ترجمات المسلمين، وبعض المسلمين يفتخر بهذا، يعتز به، ثم لما وقفوا على بعض كتب اليونان الأصلية اكتشفوا أن تلك الترجمات كانت ممسوخة، وغير دقيقة وهذا طبعي؛ لأن هؤلاء الذين

يترجمون ما هي المعايير والموازين والمقاييس التي يتبعونها من أجل أن تخرج ترجمة أمينة كما يقال، أو مأمونة أو صحيحة ما هي؟ ولا توجد لجان للمراجعة، ولا يوجد شيء كل واحد يترجم كتاباً ويتسارع ليترجم أكبر قدر من الكتب ليقدمها للمأمون من أجل أن توزن له بالذهب فصارت تجارة فمن الذي يأتي من بعده ويأخذ الكتاب الأصلي ويقابل حتى يقول: هذه الترجمة جيدة أو غير جيدة؟ تجارة، وكتب اليونان إذا حرفت فيها تأثم، فكيف بنصوص وآيات حرفت!، وما الذي يحمل مثل المأمون، ودوله كاملة مثل دولة المأمون على تبني القول بخلق القرآن، والمعتزلة ما كان لهم جمهور وشعبية كما يقال: إنما هي في فئة المثقفين يعني كما نعبر اليوم، لكن الناس اللذين كانت تخضع لهم الرقاب هم أمثال الإمام أحمد وأئمة السنة، وهؤلاء يُجرجرون ويعذبون، ويقتلون ويموت بعضهم بالأكبال بالحبس من أجل ماذا؟ يعني حتى السياسة بمنأي عن هذا، كَسَبِّ الناس والجمهور من أجل ألا يفك الأسير حتى يمتحن هل يقول بخلق القرآن أو لا؟ إلى هذا الحد، فهذه أمور تاريخية فيها عبرة عظيمة، وإذا نظرت إلى كثير من الاشتغال اليوم اشتغال بعض المثقفين في موضة العصر بهذه الكتب الضالة المضلة تقول: سبحان الله كل زمان يجد الناس فيه مَن أعرض عن الكتاب والسنة، والله المستعان.

{إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ} أي: إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة، فعند ذلك التفت فرعون إلى مَنْ حوله من مَلَئه ورؤساء دولته قائلا لهم، على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله: {أَلا تَسْتَمِعُونَ} أي: ألا تعجبون مما يقول هذا في زعمه أن لكم إلها غيري؟ فقال لهم موسى: {رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأوَّلِينَ} أي: خالقكم وخالق آبائكم الأولين، الذين كانوا قبل فرعون وزمانه.

{قال} أي: فرعون لقومه: {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} أي: ليس له عقل في دعواه أنّ ثَمّ ربًّا غيري.

قال: {رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأوَّلِينَ} فرعون يدعي أنه الرب الأعلى، ولكن قبل أن يولد فرعون من كان الرب؟ فموسى -عليه الصلاة والسلام- جاء كلامه متضمنا هذه القضية قال: {رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأوَّلِينَ}، لهذا يقول الله -عز وجل-: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} [سورة الزخرف:٥٤] وإلا أليس لهؤلاء عقول فيفكروا من كان الرب قبل ولادة فرعون؟ هل كان فرعون ينكر أنه وجد بعد أن كان عدماً؟ فهو ولد كما يولد الناس، وكبار السن يعرفون مولده، وأدركوا مَن قبله.

{قال} أي: موسى لأولئك الذين أوعز إليهم فرعون ما أوعز من الشبهة، فأجاب موسى بقوله: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} أي: هو الذي جعل المشرق مشرقًا تطلع منه الكواكب، والمغرب مغربًا تغرب فيه الكواكب، ثوابتها وسياراتها، مع هذا النظام الذي سَخّرها فيه وقدّرها، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقًا فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغربًا، والمغرب مشرقًا، كما أخبر تعالى عن {الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ..} الآية [سورة البقرة:٢٥٨]؛ ولهذا لما غُلب فرعون وانقطعت حجته عدل إلى استعمال جاهه وقوته وسلطانه، واعتقد أن ذلك نافع له ونافذ في موسى -عليه السلام.

عندما يقول فرعون: إنه الرب الأعلى، الناس الذين يستعبدهم أو يستخفهم فرعون وقد تعاظم في نفوسهم بما له من السلطان والقوة ونحو ذلك، حتى بلغ به الأمر هذا المبلغ، فموسى -صلى الله عليه وسلم- يقول: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} فهذا إذا كان يتصرف بكم هذا التصرف، وهذا التخويف والاستعباد ويتعاظم في نفوسكم فلربما لا يجترئ أحد أن يمر قريباً من قصره، فضلا عن أن يدخل عليه، ولربما يموت الرجل قبل أن يكلمه من الخوف رجل يدعي الربوبية، فموسى -عليه السلام- يقول: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} يعني هذه أمور لا يد لفرعون فيها ولا يتصرف في المشارق والمغارب وإنما يتصرف في أرض محدودة بأرض مصر لا يتجاوز ملكه عريش مصر كما قيل، وإذا أردت أن تعرف هذا تخيل فرعون وهو يدعي الربوبية، وانظر إلى صورة الكرة الأرضية في جوجل ولك أن تتصور فرعون في مصر لا يظهر على الخريطة، ومع هذا يقول: {أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى} [سورة النازعات:٢٤] من الذي يدير هذه الأفلاك، ويدير الأرض بكاملها والسماوات، فالذين تعاظم في نفوسهم من الجمهور الذين حوله لربما لشدة فراغ قلوبهم تعاظم الخوف منه فبعضهم ينطلي عليه بعض الكلام و يطأطئ رأسه {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ} [سورة الزخرف:٥٤]، لكن لو خرج الإنسان من مثل هذا الوهم الكبير والضبابة التي لا زال يمشي في داخلها لأبصر شيئاً وراء ذلك واسعاً كبيراً لا يصل إليه فرعون، ولا يعلم به ولا شأن له بتدبيره وتصريفه، وهنا قال: ولهذا لما غُلب فرعون وانقطعت حجته عاد لاستعمال جاهه وقوته، وهكذا كل من انقطعت حجته من المكابرين، ومن لم يطلب الحق فإنه يلجأ إلى شيء آخر فإن كان له سلطان فبسلطانه، وإن لم يكن له سلطان فبرفع الصوت والجدل، واستعمال العبارات التي لا تبرهن على صحة ما يقول، إنما السباب والشتم والإقذاع، انقطعت عليه الحجج والبراهين، ما عنده حجج يثبت فيها الكلام فيلجأ إلى مستودع آخر من السباب والشتائم، والإقذاع إضافة إلى رفع الصوت، و لربما أدى الأمر ببعض السفهاء إلى استعمال يده، والله المستعان.

لكن على كل حال الصحيح أن الإنسان يتكلم بالحجج، بالبينات، بالبراهين، بالأدلة، كما فعل موسى -عليه الصلاة والسلام- أقول لو أن الناس في ردودهم على المنافقين اليوم استعملوا هذه الطريقة لكان أنفع، هذا أنفع وأجدى؛ فإن استعمال اللغة الأخرى أولاً غير لائق، ويتنزه عنه المؤمن، انظروا إلى عبارات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كموسى -عليه الصلاة والسلام- لما قالوا له: {أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [سورة البقرة:٦٧]، فدل على أن الذي يستهزئ بالناس هو من الجاهلين، فلغة الاستهزاء والاستخفاف بطريقة غير مناسبة لطالب العلم هذه لا تعالج المشكلة هذه يطرب لها جمهورك الذين حولك، يطرب لها الموافقون لك يُسر لمّا يقرأ هذه الشماتة بالخصوم والمخالفين، لكن المخالف ماذا يحصل له؟ لا يزيده ذلك إلا عتواً وعداوة وضغينة وذلك مما يبعده تماما عن الحق الذي تدعوه إليه، فلا داعي لاستعمال مثل هذه اللغة، بعض الإخوان من الكاتبين محتسبون في الرد على بعض المنافقين اليوم، وما رأيناهم يرجعون بسبب هذه الردود.

لابد من الرد عليهم، نحتسب في الرد عليهم لابد من هذا لكن بالحجج والبينات والبراهين واللغة الرفيعة، ويفرق بأحوالهم، هذا المستودع أقصد به السباب والشتائم، ولغة الإقذاع لا داعي لها، لا داعي لاستعمالها، هذا لا يصلح حجة للقائم لله ، وانظروا إلى كلام أهل العلم، ردود شيخ الإسلام، درء تعارض العقل والنقل،

وغيره لم يكن قاموساً من السباب والشتم والإقذاع، وعبارات أحياناً القارئ الموافق لك يعرق جبينه وهو يقرؤها، أحيانا عبارات اسمحوا لي عبارات سوقية غير لائقة، وثقافة شوارع إن صح التعبير وفي بعض الكتابات يكون صاحبها له ثقافة قديمة، ثقافة شوارع لم تكن تربية نزيهة في السابق، نظيفة بعيدة عن هذه اللغة؛ لأن من تربى تربية نزيهة نظيفة لا يستطيع أن يتكلم بهذا حتى مع عدوه، لا يستطيع هذا، لا يستطيع أن يطاول أعداءه في السباب والشتائم والإقدام، ما يستطيع، تربيته تمنعه من ذلك، وهذا يحتاج إلى أن يُعرف؛ لأن الواحد منا أحياناً قد يظن أن هذه طريقة سليمة صحيحة وأن هؤلاء يستحقون، لابد من تحديد الهدف والمراد، والمراد بيان الحق، الحق يبين بغير هذا، وإذا كان المقصود التشفي والانتقام فهذا لون منه، لكنه غير مراد.

فقال ما أخبر الله تعالى عنه: {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ} [سورة الشعراء:٢٩-٣٧].

لما قامت على فرعون الحجة بالبيان والعقل، عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه، وظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال، فقال: {لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}، **فعند ذلك قال موسى:** {أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ} **أي: ببرهان قاطع واضح.**

{قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ} **أي: ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائم وفم كبير، وشكل هائل مزعج.**

هنا قال: {لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي} هذا مقام محاجة فرعون انخلع منه، فلما انقطعت حججه انخلع من ذلك ولجأ إلى لغة أخرى لغة التهديد بالسجن، {لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ}، فموسى -عليه الصلاة والسلام- استمر في بيان البراهين والحجج على فرعون {أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ} أي: ببرهان قاطع واضح مبين، وكما سبق لفظة "بان" تأتي قاصرة ومتعدية: بان في نفسه اتضح، ومبين أيضاً للحق، مبين للحقائق التي غفلت عنها مثلاً مبين لغيره، وهذا كله في آيات الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، فهي بينة ظاهرة لا خفاء فيها، ولهذا تواعد معه على أن تكون المحاجة بينه وبين السحرة في وقت جلوة لا خفاء فيه ولا غبش {وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى} [سورة طه:٥٩]، فهو بيّن في نفسه مبين لما سيق من أجله، وسبق الكلام على هذا المعنى لفظة بان وأبان ومبين أي: بيّن واضح في قصيدة كعب -رضي الله عنه-، ويقال: {وَكِتَابٍ مُّبِينٍ} أي بين في نفسه وهو أيضاً مبين لحقائق الشرع {فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ}، والثعبان هو الذكر من الحيات والعظيم منها، والله -تبارك وتعالى- ذكر في مواضع أخرى قال: {فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى} [سورة طه:٢٠]، وفي الموضع الآخر: {فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ} [سورة النمل:١٠]، فالحية هي الأصل، والثعبان للعظيم والذكر من الحيات، والجان هو الصغير منها، {كَأَنَّهَا جَانٌّ} والحيات أنواع فمنها ما هو صغير في خلقته سريع الحركة، سريع الالتواء، يقال له: جان، كأنها جان، وليس بين هذه الأوصاف تعارض، ثعبان، حية، جان، فأحياناً تكون صغيرة، وأحياناً تكون كبيرة، لكن وجوه الجمع هذه لا تصلح، فذكور الحية عظيمة ثعبان،

ولها سرعة في الحركة على خلاف المعهود في الثعابين {كَأَنَّهَا جَانٌّ} كأنها حية دقيقة صغيرة سريعة الحركة، وليس هذ تعارضاً، هنا ثعبان مبين، وقول الحافظ ابن كثير: **ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح والعظمة، ذات قوائم**، هذا يحتاج إلى دليل، هذا ورد في بعض المرويات المأخوذة من بني إسرائيل، فما نعرف أنها ذات قوائم، هذا يحتاج إلى دليل.

تجدون في كلام المفسرين في بعض المواضع في كتاب الله -عز وجل- لمّا يفسرون مثل هذه يريدون الإسرائيليات، ويذكرون أشياء عجيبة وغريبة في وصفها، أو في ما وقع لفرعون حينما رآها وهو في مجلسه يدعي الربوبية ولما رآها أصابه هلع شديد، يذكرون أشياء لا يصدقها العقل، ارجعوا إليها في غير هذا الموضع، لا تصدق.

{وَنَزَعَ يَدَهُ} أي: من جيبه {فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ} أي: تتلألأ كقطعة من القمر. فبادر فرعون بشقائه إلى التكذيب والعناد، فقال للملأ حوله: {إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ} أي: فاضل بارع في السحر، فَرَوَّج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر لا من قبيل المعجزة، ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته، والكفر به، فقال: {يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} أي: أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا، فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم، فيأخذ البلاد منكم، فأشيروا عليَّ فيه ماذا أصنع به؟

قال هنا: {وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ} [سورة النمل:١٢]، هذا الجيب هو مدخل العنق، ومدخل الرأس من الثوب قال له: جيب، فإذا أدخلها صارت بيضاء فكان له هذه الآية، وهذه غير الآية الأخرى، {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ} [سورة القصص:٣٢] جناح الإنسان هو جانبه يقال: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ} [سورة الإسراء:٢٤] أي الجانب أو جناحك الذليل جانبك اللين، ويقال: لليد جناح، من جناح الطائر، {وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ} فإذا خاف يفعل ذلك، وهذا غير اليد، فهما آيتان إحداهما تعود إليه بثبات القلب، رباطة الجأش السكون إذا أصابته رهبة حينما يدخل على فرعون مثلا فيسكن، والآية الثانية لفرعون وهي أن تخرج يده بيضاء من غير سوء يعني من غير برص، فهنا فرعون ماذا قال لهم: التفت على أصحابه وقال لهم: {إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ}؛ من أجل أن يخرجوا بصفة متفقة يطلقونها عليه، لا تختلف كلمتهم، المشركون في مكة حاولوا أن يتفقوا على شيء بشأن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما كانوا مشتتين ليس لهم رأس تجتمع عليه كلمتهم جاءت عباراتهم ساحر، مجنون، شاعر، كذاب، أساطير الأولين، تناقضوا مع أنهم حاولوا أن يأتوا بشيء متحد، وتشاوروا في هذا لكنهم لم يتفقوا تناقضوا، والرجل الواحد منهم يتناقض عدة مرات، لكن هنا فرعون مباشرة {قَالَ لِلْمَلَإِ} لأهل الرأي والتدبير إن هذا لساحر ولهذا جاء الجواب لما أظهر لهم المشورة وطلبها منهم {فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ} أخرْه أمهله وأرسل، {قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ} فالقضية أنه ساحر، يأتون بالسحرة، ولهذا لما جاء السحرة ورأوا موسى -عليه الصلاة والسلام- ذكرهم بالله {وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ} [سورة طه:٦١]، حصل بينهم شيء من الاضطراب ثم أسروا النجوى لم يظهروا ذلك، واتفقوا على أن تتحد كلمتهم وقوّوا قلوبهم بقولهم: {إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا

{وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى} [سورة طه:٦٣] جاءوا بهذه الجمل التي لها مدلولات تثبت نفوسهم، هذا ساحر يريد شراً يريد أن يذهب بطريقتكم الصحيحة المثلى فتقْوى نفوسهم على مواجهته ولا يختلف قولهم فيه.

{يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم} مع أن موسى -صلى الله عليه وسلم- لم يظهر لهم شيئاً من هذا، ولم يقل لهم أريد أن تخرجوا من مصر، والمراد بقوله تعالى: {يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ} يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا فيكثر أعوانه وأنصاره وأتباعه ويغلبكم على دولتكم فيأخذ البلاد منكم**، بمعنى أنه إذا تغلب فهذا يئول إلى ظهوره، وكون السلطان له، ثم أنتم بعد ذلك لا يبقى لكم مكان في هذه الأرض لأنكم لستم على دينه، وما يدعو إليه وسيئول الأمر إلى قتالكم والنكاية بكم، هذا معنى كأنه يشير إليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله-، وبعضهم كابن جرير يقول: هذا الخطاب وإن كان ظاهره موجهاً إلى القبط {يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم} إلا أن المقصود بالخروج خروج بني إسرائيل؛ لأنه قال: {فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ} [سورة الأعراف:١٠٥]، يريد أن يَخرج بهم، يريد أن يخرجكم من أرضكم أي أن يُخرج عبيدكم وخدمكم وهم هذه الأمة الكبيرة بين أظهركم ممن يشتغلون في الخدمة ويعملون بالأعمال المهينة، فأراد بالإخراج إخراج هؤلاء يعني يمكن أن نعبر بعبارة أخرى فنقول: وجه الخطاب لعموم الأمة المصرية وهؤلاء يتكونون من القبط والإسرائيليين فهم تحت مملكته، وإدارته، فيقول لهم: يريد أن يخرجكم ويكون بهذا أطلق هذه العبارة العامة تشمل الجميع وأراد بعضهم، فيكون من العام المراد به الخصوص، أن يُخرج بعضكم، يخرج الإسرائيليين على هذا المعنى الثاني.

{قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ} أي: **أخِّره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحّار عليم يقابلونه، ويأتون بنظير ما جاء به، فتغلبه أنت وتكون لك النصرة والتأييد، فأجابهم إلى ذلك، وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك؛ ليجتمع الناس في صعيد واحد، ولتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة.**

يعني لو بقيت القضية بين الملأ فقط في قصر فرعون ربما لم يطلع عليها الناس وطويت وكتبت أو نقلت مشوهه لكن الله -عز وجل- أراد هذا فجاءت منهم فذهبوا يحشرون الناس يحشرون السحرة في البداية ثم جعلوا يحشرون الناس ليجتمعوا ويشاهدوا جميعاً هذه الآية العظيمة، فإذا أراد الله -عز وجل- شيئاً هيأ أسبابه، وإن كانت في الظاهر قد تكون مكروهة لبعض أهل الإيمان، ولكن عواقبها محمودة فالله عليم حكيم.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشعراء من الآية ٣٨ إلى ٦٨

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [سورة الشعراء:٣٨-٤٨].

ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى والقبط في "سورة الأعراف" وفي "سورة طه" وفي هذه السورة: وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم، فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. وهذا شأن الكفر والإيمان، ما تواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان، {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ} [سورة الأنبياء:١٨]، {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [سورة الإسراء:٨١]، **ولهذا لما جاء السحرة، وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم وأشدهم تخييلا في ذلك، وكان السحرة جمعًا كثيرًا، وجمًا غفيرًا، والله أعلم بعدتهم.**

واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم، وقال قائلهم: {لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ}، **ولم يقولوا: نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم.**

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى: {فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} المقصود به يوم العيد "موعدكم يوم الزينة"، والقرآن يفسر بعضه بعضاً، وهذا النوع من التفسير يعد من التفسير القطعي؛ لأن تفسير القرآن بالقرآن مما يقطع به، وتفسير القرآن بالقرآن من حيث الجنس هو أعلى درجات التفسير، ولكن هذا ليس باعتبار الأفراد والأمثلة وآحاد تفسير القرآن بالقرآن؛ لأن ذلك يدخله اجتهاد المفسر فقد يصيب وقد يخطئ وقد يكون وجه الربط بين الآية والآية غير ظاهر، وقد يكون الاحتمال قوياً وقد يقطع بهذا، فمما يقطع به مثل هذا الموضع، جمع السحرة لميقات يوم معلوم: {قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى} [سورة طه:٥٩]، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى- في الآيات التي مضت في قول السحرة {إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا} [سورة الشعراء:٥١]، هذه الخطايا تفسر بقوله -تبارك وتعالى-، إضافة إلى السحر والكفر والشرك بالله -جل جلاله- وقولهم في الآية الأخرى: {وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [سورة طه:٧٣]، وهنا جمع السحرة

لميقات يوم معلوم هو يوم الزينة، كما يقال في قوله -تبارك وتعالى- في آية مضت في الأسبوع الماضي لما قال فرعون: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} فهذا يفسر قوله تعالى في سورة الفاتحة: {الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الفاتحة:٢]، فبعضهم يقول: "العالمين" الإنس والجن، مثلاً هنا هذا التفسير: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا} هذا أحسن ما يفسر به، والله تعالى أعلم، وقولهم هنا: {وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ}، يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **وقال قائلهم: لعلنا نتبع السحرة، ولم يقولوا نتبع الحق سواء كان من السحرة أو من موسى، بل الرعية على دين ملكهم**، يعني الحافظ ابن كثير -رحمه الله- جعل ذلك من قول الناس، {وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ} وقد يفهم من الآية -والله تعالى أعلم- أن الذين قالوا ذلك هم الذين حشروا الناس وجمعوهم؛ لأن فرعون أرسل في المدائن حاشرين يجمعون الناس، فقالوا لهم مثل هذا القول: {لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ}، والمقصود باتباع السحرة ليس ذلك باتباعهم بسحرهم، وإنما المقصود أن السحرة يمثلون فرعون في هذه المغالبة، فإذا ظهر السحرة على موسى -عليه الصلاة والسلام- فهذا ظهور لفرعون الذي جاء بهم، فهؤلاء من أعوان فرعون وجنوده، يقولون للناس: {لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ} وهم متبعون لهم؛ ولذلك يمكن أن يقال -والله تعالى أعلم-: لعلنا نتبع السحرة، يعني كأنهم يريدون الإبقاء على دينهم، والثبات على عبادتهم لفرعون والإعراض عما جاء به موسى -عليه الصلاة والسلام-، وظاهر كلام ابن كثير -رحمه الله- أن ذلك جرى من آحاد الناس؛ ولهذا قال: **الناس على دين ملكهم**، ولكن ظاهر الآية قد يفهم منه -والله تعالى أعلم- أن الذين قالوا ذلك ليسوا آحاد الناس، وإنما الذين بعثهم فرعون، ولم يذكر القائل في قوله: {وَقِيلَ لِلنَّاسِ} وهذا يُفسَّر بما جاء في كتاب الله -عز وجل-، فهم لا يريدون غير هذا أصلاً يعني فرعون وأعوانه لا يريدون إلا اتباع السحرة لأنه يعني اتباع فرعون؛ ولهذا لما ظهرت حجة موسى -عليه الصلاة والسلام- ما تحول الملأ مثلا من القبط أو من قوم فرعون إلى مؤمنين، إنما الذي آمن هم السحرة، لكن هذا لاشك أنه يدل على نية سيئة مبيتة من فرعون، ومن معه أنهم لا يريدون الحق لهذه المغالبة، حتى لو ظهر موسى -عليه الصلاة والسلام- فكانوا على هذا القصد الفاسد ابتداء، ومن كان على هذا القصد فالأصل أنه لا يناظَر، ولا تصلح المحاجة معه لذاته، وإنما لمطلوب آخر من أجل أن يعرف الناس الحق ويتبين وينكشف، وهذا الذي حصل: جمع الناس فإذا كان فرعون ومن معه لم يكونوا على استعداد للإيمان، ولكن الذي حصل هو أن الناس جُمعوا لميقات يوم معلوم، حشر الناس فشاهدوا هذه الآية العظيمة وقامت عليهم الحجة وعرفوا صدق موسى -عليه الصلاة والسلام-، وبطلان ما كان عليه فرعون، فآمن من أراد الله هدايته، ومن كان مبطلاً في هذه المحاجة فإنه لم يؤمن، وكان يقصد إبطال الحق ورد الحق لا يريد اتباعه ابتداء فمثل هذا قد لا يوفق للهدى، والله المستعان.

{فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ} أي: **إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقا، وجمع حشمه وخدمه وأمراءه ووزراءه ورؤساء دولته، وجنود مملكته، فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا، أي: هذا الذي جمعتنا من أجله، فقالوا**: {أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ} أي: **وأخص مما تطلبون، أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي، فعادوا إلى مقام المناظرة** {قَالُوا

يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا [سورة طه:٦٥- ٦٦]، **وقد اختصر هذا هاهنا.**

في سورة طه خيروا موسى -عليه السلام- فقالوا: **{يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى}**، لكن هنا جاء ذلك مختصراً، فقال الله -تبارك وتعالى-: **{قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ}** كأن موسى ابتدأهم بذلك، وكان أول هذا أنهم خيروه فاختار موسى -عليه الصلاة والسلام- أن يبدءوا هم بإلقاء سحرهم وهذا لاشك أنه أوقع في النفوس، وذلك أن مشاهدة هذا السحر ثم بعد ذلك يكون العاقب له هذه الآية العظيمة فإن هذا أوقع في القلوب وأعظم تأثيراً، ويمحو كل ما يمكن أن يوجد في نفوس الناس حينما يشاهدون أعمال السحرة، ويبطله تماماً، والناس إنما يعلق في قلوبهم ما يكون آخراً، فألقوا وشاهد الناس كل ما عندهم، ثم جاءت آية موسى بعد ذلك، وأنستهم ما ألقاه السحرة، صارت تلقف ما يأفكون فما بقي لهم شيء.

فقال لهم موسى: {أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ}، وهذا كما يقوله الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئا: هذا بثواب فلان.

الباء هذه يحتمل أن تكون للسببية، قالوا: **{بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ}** أي: بسبب عزة فرعون **{إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ}**، ويحتمل أن تكون الباء للقسم، ألقوا وقالوا: **{بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ}** أقسموا بعزة فرعون وهذا لا يستغرب؛ لأن فرعون يدعي الإلهية أصلاً، ويقول: **{أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى}** [سورة النازعات:٢٤]، وما ظنكم بهؤلاء السحرة؟، كما سبق الكلام في سورة طه في الكلام على قصة موسى -عليه الصلاة والسلام- وهكذا في الأعراف أن السحرة هم أخبث الناس نفساً، وأنهم أكفر الناس وأن الرجل لا يمعن في السحر، ويكون حاذقاً فيه إلا على قدر ما يحصل له من الإشراك، والدنس بكل معانيه، و"كل" هنا للعموم على وجهها، كل معانيه، كلما استطاع أن ينزل أكثر كلما كان الشياطين يعينونه أكثر، ماذا يفعل؟ يكتب المصاحف بدم الحيض، ويكتبها بأشياء أخرى قذرة يلطخ المصاحف بها، وتجد أوراق المصحف في القذر -أعز الله كتابه وكلامه ومن يسمع- وهذا موجود إلى اليوم، وألوان الفجور، والشياطين تفجر به، لا يتنزه عن شيء إطلاقاً، فكلما كان أوغل في القذر والوحل كلما كان أحذق في السحر، فما ظنكم بمثل هؤلاء الذين جاءوا؟ فإذا قالوا: بعزة فرعون: يقسمون بعزة فرعون أنهم هم الغالبون، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وهذا فعلوه -والله أعلم- تقوية لقلوبهم وربطاً لعزائمهم عند المناظرة، لكن الشيء الغريب أن هؤلاء على ما هم فيه من الحال التي وصفت وهؤلاء كبار السحرة مباشرةً لما رأوا هذه الآية سجدوا -وجاء ذلك في كتاب الله -عز وجل- معقباً بالفاء التي تدل على التعقيب المباشر- ومباشرة وأمامهم فرعون وكانوا يطمعون بالقرب منه والأجر، ثم توعدهم بهذا الوعيد الشديد **{لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ}**، وقال: لأصلبنكم في **{وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ}** [سورة طه:٧١]، والصلب على جذوع النخل أشد أنواع الصلب؛ لأن الإنسان إذا ربط في جذع أو على سارية أو نحو ذلك فإن هذا تعذيب له وأذى، لكن إن كان على جذع نخلة فإن أذاه أشد من غيره، قالوا ولهذا جاء بـــ"في" التي تدل على الظرفية، ولم يقل: على جذوع النخل، وهذا يدل على شدة الربط كأنه يدخلهم في جذع النخلة، فالشاهد أنه توعدهم بهذا الوعيد وفاتهم ما كانوا يؤملون، ومع ذلك ثبتوا هذا الثبات العظيم، وقالوا هذا الكلام الذي هو عن يقين عظيم جداً: "لا ضير" من أين جاء هذا الثبات؟!، وقالوا: **{إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا**

خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} تحولٌ من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين في الثبات والإيمان، فهذا هدى الله يهدي به من يشاء من عباده، بينما الناس العامة ما نُقل أنهم آمنوا، وهذا فيه دلالة أخرى وهي أن الحجج والبراهين والآيات إنما تقوى ويقوى أثرها عند أرباب الصنعة، والسحرة هم أعلم الناس بما جاء به موسى -عليه الصلاة والسلام- أن هذا ليس من جنس السحر، وأن هذا لا يتطرق إليه أي احتمال، فخضعوا مباشرة، وهذه الآية أثرها بالنسبة لعامة الناس ليس كأثرها على السحرة؛ لحذق السحرة في هذه الصنعة، ولذلك يقال هذا في أشياء: يعني في المرويات -روايات الحديث- قد يأتي رجل من أهل الكلام ممن لا يعرف الحديث ولا تثبُّت الرواة فيما يروون، ويرد الحديث بحجة أن هذا الحديث ما الذي يثبت أنه صحيح، وهو في صحيح البخاري أو من المتفق عليه لكن تجد العالم بالحديث يحصل له من اليقين مالا يحصل لغيره، ولهذا في الكلام على مسألة الآحاد هل يفيد العلم أو لا يفيد العلم؟، هذا يختلف باعتبارات متعددة منها حال الشخص نفسه، فالعالم بالحديث إذا نظر في الإسناد أو في الطرق فإنه يحصل له بسبب معرفته بهذه الصنعة من اليقين ما لا يحصل لأهل الكلام مثلاً؛ لجهلهم، ولذلك تجد العامي أحياناً عندما تقول له: هذا الحديث رواه البخاري، فيقول: وما يدرينا أن ذلك لم يُدس في البخاري، فتحتاج أن تعطي دورة كاملة، بحيث توجد أرضية للنقاش، وأقصد بالعامي: مَن هو غير أهل العلم بهذا؛ فقد تجد أستاذاً بالجامعة في تخصص بعيد عن التخصصات الشرعية، ويتكلم بهذه الطريقة، وهذا موجود، والسبب هو جهله.

وقد ذكر الله في سورة الأعراف: أنهم {سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ} [سورة الأعراف:١١٦]، **وقال في سورة طه:** {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى...} **إلى قوله:** {وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى} [سورة طه:٦٦-٦٩].

وقال هاهنا: {فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} **أي: تختطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه فلم تدعْ منه شيئاً.**

قال تعالى: {فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ...}، **إلى قوله:** {رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [سورة الأعراف:١١٨-١٢٢].

قوله -تبارك وتعالى-: {فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ}: هذا يدل على أن السحر الذي حصل كان من قبيل سحر التخييل وأنه غير حقيقي، والمفسرون يذكرون في هذا أشياء كثيرة، ولا دليل عليها وبعضهم يقول: وضعوا الزئبق فصارت تتحرك بهذه الطريقة، يعني كانوا يعرفون خواص المواد، وما يعرف عن طريق معرفة الكيمياء، وهذا النوع من أنواع السحر غير الحقيقي، سحر التخييل، وقد يكون تعاطي بعض أنواع الشعبذة والاستعانة بالشياطين من هذا النوع، يعني منه ما يعرف بخواص المواد، ومنه ما يعرف بنوع من الشعبذات أو الاستعانة بالشياطين، فيخيل إليه أشياء لا حقيقة لها، سحر التخييل، والنبي -صلى الله عليه وسلم- سُحر فكان يخيل إليه فيما يتصل ببعض الجوانب، لا علاقة لذلك بأمر البلاغ والوحي، وهذا قد عصمه الله -عز وجل- فيه، ولازال هذا النوع يستعمل إلى اليوم حتى في الحروب، حتى الآن يستعمل في الحروب، الآن يومك هذا الذي أنت فيه يسحرون يُسحر الجنود فيرون الشجر والحجر رجالاً يتحركون، فيجلسون يطلقون كتائب أمامهم، وما في أحد، فيقتلهم الذين يرصدونهم يقتلونهم بكل سهولة، وهم جالسون

مشتغلون يضرب الأشجار والأحجار ويقولون: انظروا إلى الرجال، انظروا إلى كذا وهو ما في أحد موجود، فبعضه يكون باستعمال هذا، ما هو استعمال خواص المواد ومعرفة الحيل وإنما بالاستعانة بالشياطين، تخيل إليهم الشياطين هذه الأمور، وذكرت في بعض المناسبات في بعض دروس العقيدة في الكلام على السحر شرح كتاب التوحيد قديماً أشياء من هذا القبيل وكذلك في درس الأوهام كيف يضلل الناس عن طريق هذا، معرفة خواص المواد ونوع يكون بهذا التخييل، والله المستعان، وهكذا في قوله -تبارك وتعالى-: {فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ} كما يقال: لو حاولتَ أن تأتي بكلمة مكافئة للفظة في كتاب الله -عز وجل- لا تجد، يعني كلمة تلقف لو قيل: فإذا هي تبتلع، لو قيل: فإذا هي تأكل ما يأفكون أو نحو ذلك لا يعبر عن المطلوب كما تعبر هذه، تلقف هذه الأشياء، كل الذي يلقونه يتطاير في فمها بصورة سريعة مدهشة حتى لم تُبقِ في هذا المكان شيئاً، تلقف: غير لما تأتي وتزحف إليه وتأكل هذا وتأكل هذا وتأكل هذا، لا، تلقف كلما ألقوا شيئاً التقفته.

وكان هذا أمرا عظيما جدًا، وبرهانًا قاطعًا للعذر وحجة دامغة، وذلك أن الذين استنصر بهم وطلب منهم أن يغلبوا، غُلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة، وسجدوا لله رب العالمين، الذي أرسل موسى وهارون بالحق وبالمعجزة الباهرة، فَغُلِبَ فرعون غَلبًا لم يشاهد العالم مثله، وكان وقحًا جريئًا -عليه لعنة الله- فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل، فشرع يتهددهم ويتوعدهم، ويقول: {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ} [سورة طه:٧١]، وقال: {إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ...} [سورة الأعراف:١٢٣].

إذا انقطعت الحجة لجأ الإنسان إلى مثل هذه الأساليب والدعاوى التي يعلم الجميع أنها لا حقيقة لها، فموسى -عليه الصلاة والسلام- متى كان يدبر مع السحرة ويخطط معهم من أجل الانقضاض على فرعون؟، ومتى كان يعلمهم ويدربهم السحر وفرعون هو الذي جمعهم له من مناطق وأماكن مختلفة؟، وآيات موسى -عليه الصلاة والسلام- وآية فرعون لم تكن ملتبسة، وإنما كانت واضحة، ولهذا فإن ما يذكره المعتزلة ومن وافقهم من المتكلمين كالأشاعرة في آيات الأنبياء أو في المعجزات بالأخص بناء على ما يتوهمونه من الالتباس بين فعل الساحر وبين معجزة الرسول غير صحيح؛ لأن آيات الأنبياء تختلف عن معجزات السحرة؛ ولذلك آيات الأنبياء ومعجزات الأنبياء تختلف عما يأتي به السحرة من الأباطيل ولهذا السحرة لم يحصل عندهم أدنى تردد فهم يعرفون؛ لأن آية النبي -وهذا هو الأهم- خارقة لجنس العادة، لا يمكن لأحد من عند نفسه مهما كان حاذقاً أن يأتي بها، ولهذا يقولون: كان الأنبياء يأتون بمعجزات من جنس ما كان يتمهر به الناس في زمانهم، وكان السحر شائعاً في قوم فرعون جاءت آية تبطل ذلك وتبين الحق بأمر خارق لا يمكن أن يأتي السحرة بمثله، فآمن السحرة مباشرة، يقولون: عيسى -عليه الصلاة والسلام- لما كان الطب شائعاً كان يبرئ الأكمه والأبرص إلى آخره، وهكذا النبي -صلى الله عليه وسلم- جاء لأهل فصاحة بهذا القران، والذي يذكرونه وتجدونه في كتب حتى بعض أهل السنة من المتأخرين: أن المعجزة أمر خارق للعادة يقصد به التحدي، مع دعوى النبوة إلى آخره، كل هذه القيود لا يصح منها شيء إلا القيد الأول أنه خارق للعادة فقط، وأما الباقي فهو من كلام المتكلمين الأشاعرة والمعتزلة؛ لأنهم لا يفرقون بين جنس آيات الأنبياء، وما يحصل على يد السحرة، يقولون: الآية والمعجزة ينبغي أن تكون غير ملتبسة، كيف تكون غير ملتبسة؟ أمر خارق

للعادة على سبيل التحدي مع دعوى النبوة، قالوا: فالساحر لا يفعل ذلك على سبيل التحدي للناس، ولا يدعي معه النبوة، وهذا الكلام لا حاجة إليه، فآيات الأنبياء غير خوارق السحرة إن صح التعبير فإن معجزات الأنبياء خارقة لجنس العادة، أي: عادة البشر جميعاً لا يمكن لأحد أن يأتي بمثلها، وأما خوارق السحرة فهي خارقه لعادة غيرهم يطير في الهواء مثلاً، يمشي على الماء هذه خارقة لعادة غير الساحر، لكن لو جئنا بساحر آخر، وقال: أنا أصنع أفضل منه وأكثر منه، فهي ليست بخارقة لجنس عادة السحرة، عرفتَ الفرق؟ أما معجزة النبي فهي خارقة لجنس العادة مطلقاً، فلا يمكن لأحد أن يأتي بمثلها، إضافة إلى أمور أخرى وهي أنه لا يشترط أن يقصد بها التحدي، فالأنبياء قد تحصل لهم الخوارق من غير تحدٍّ، تحصل بين أصحابه كنبع الماء بين أصابعه -عليه الصلاة والسلام-، وإنزال المطر بدعائه، وكذلك الإخبار عن أمور غيبية مثل مكان ناقته حينما ضاعت في بعض مغازيه، وهكذا أيضاً انقياد الشجر له وتسليم الحجر عليه، قد يحصل له ذلك بمفرده دون أن يراه أو يطلع عليه الآخرون، هذا كله من آيات الأنبياء لا يشترط أن يقصد بها التحدي، إضافة إلى حال الساحر، وحال النبي، شتان، فالساحر أقذر الناس نفساً، والنبي أطهر الناس نفساً، الساحر يدعو إلى كل رذيلة، والنبي يدعو إلى كل فضيلة، ولهذا تجد هرقل في السؤالات المعروفة لم يسأل عن معجزة واحدة، كل الأسئلة التي سألها من دلائل النبوة وآيات الأنبياء ليس فيها خارق واحد، ما سأل عن معجزة، ومع ذلك عرف أنه نبي وأيقن، وكذلك أيضا لما هاجر النبي -صلى الله عليه وسلم- ورآه عبد الله بن سلام -رضي الله تعالى عنه- فقال: إن وجهه ليس وجه كذاب، وسأله بعض الأسئلة ولم يطلب منه معجزة.

{قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} [سورة الشعراء: ٤٩-٥١].

تهددهم فلم ينفع ذلك فيهم، وتوعدهم فما زادهم إلا إيمانا وتسليما، وذلك أنه قد كُشف عن قلوبهم حجاب الكفر، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهِلَ قومُهم من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر، إلا أن يكون الله قد أيده به، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه؛ ولهذا لما قال لهم فرعون: {آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ}؟ أي: كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم، ولا تفتاتوا عليَّ في ذلك، فإن أذنت لكم فعلتم، وإن منعتكم امتنعتم، فإني أنا الحاكم المطاع؛ {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ}، وهذه مكابرة يعلم كل أحد بُطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل.

ثم توعَّدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب، فقالوا: {لا ضَيْرَ} أي: لا حرج ولا يضرنا ذلك ولا نبالي به {إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ} أي: المرجع إلى الله، وهو لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملا ولا يخفى عليه ما فعلتَ بنا، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء؛ ولهذا قالوا: {إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا} أي: ما قارفناه من الذنوب، وما أكرهتنا عليه من السحر، {أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ} أي: بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان، فقتلهم كلهم.

قوله -تبارك وتعالى- عن قول فرعون {لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ} المقصود بذلك: قطع يد من جهة ورِجل من جهة أخرى فتتعطل مصالح الإنسان في الانتقال والمشي والحركة، وفي المعاطاة وتبادل المنافع والتصرف في شئونه وحاجاته، وأما قول السحرة: لا ضير فبمعنى لا ضرر، قال: لا ضرر ولا ضير أي أن هذا لا يضرنا، وقد مضى الكلام على مثل هذه الآيات في مناسبات سابقة.

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} [سورة الشعراء:٥٢-٥٩].

لما طال مُقام موسى -عليه السلام- ببلاد مصر، وأقام بها حُجَج الله وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فأمر الله موسى -عليه السلام-، أن يخرج ببني إسرائيل ليلا من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤمَر، ففعل موسى -عليه السلام- ما أمره به ربه -عز وجل-، خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حُليا كثيراً، وكان خروجه بهم فيما ذكر غير واحد من المفسرين وقت طلوع القمر، وذكر مجاهد -رحمه الله- أنه كُسِف القمر تلك الليلة، فالله أعلم.

مثل هذا لا يصح ولا يثبت، والمرويات في هذا كثيرة جداً، وكل ذلك يحتاج إلى دليل، ويقولون: إنهم خرجوا في يوم عيد لبني إسرائيل، ولهذا استعار نساؤهم الحلي من نساء الفراعنة، فلما خرجوا بقي معهم هذا الحلي، فقالوا: {وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا} [سورة طه:٨٧]، فلما ذهب موسى -عليه الصلاة والسلام- إلى الميقات وهؤلاء معهم الحلي المستعار ما عرفوا كيف يصنعون به، كيف يتصرفون فألقوا ذلك الحلي المستعار، فأوقد عليه السامري، وجعله لهم بهيئة العجل وقبض قبضة من أثر حافر فرس جبريل -عليه الصلاة والسلام- فألقاها، فصار ذلك العجل له خوار، فهذا شأن الحلي الذي كان معهم.

وأن موسى -عليه السلام- سأل عن قبر يوسف -عليه السلام-، فدلته امرأة عجوز من بني إسرائيل عليه، فاحتمل تابوته معهم، ويقال: إنه هو الذي حمله بنفسه -عليهما السلام.

الحديث معروف في عجوز بني إسرائيل لما اشترطت على موسى -عليه الصلاة والسلام- أن ترافقه في الجنة، فدلتهم على مكان قبر يوسف -صلى الله عليه وسلم- وكان قد أوصى بذلك -أي أن ينقل-، وإلا فالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- كما ذكر النبي -صلى الله عليه وسلم- يدفنون حيث ماتوا، وما جاء أن موسى -عليه السلام- سأل عن قبر يوسف -عليه السلام- ونقله مع أن أجساد الأنبياء قد حرمت على الأرض فالمقصود أن العظام تطلق ويقصد بها الإنسان، الجسد، وإلا فقد كانت المدة الطويلة بين يوسف -عليه الصلاة والسلام- وبين موسى في مجاري العادات كانت كافية لتحلل العظام، ولكن الله يحفظ أجساد الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام.

وكان يوسف قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحملوه معهم، فلما أصبحوا وليس في ناديهم داع ولا مجيب غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بني إسرائيل؛ لِمَا يريد الله به من الدمار، فأرسل سريعا في بلاده حاشرين، أي: مَنْ يحشر الجندَ ويجمعه، كالنُّقباء والحُجَّاب، ونادى فيهم: {إِنَّ هَؤُلَاءِ} -يعني: بني إسرائيل- {لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ} أي: لطائفة قليلة.

{وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ} أي: كل وقت يصل لنا منهم ما يغيظنا.

يقول: إن هؤلاء لشرذمة قليلون، الشرذمة الطائفة القليلة الحقيرة، شرذمة، يعني يقال هذا: للشيء المستحقر، وبنو إسرائيل قدروا في ذلك الوقت بأنهم يبلغون ستمائة ألف -والله تعالى أعلم-، لكن بالنظر إلى الفراعنة هم قلة، وكانوا يعملون في الخدمة والأعمال المهينة، إن هؤلاء لشرذمة قليلون.

{وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ} أي: نحن كل وقت نحذر من غائلتهم، وقرأ طائفة من السلف {وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ}.

قراءة المدنيين قراءة متواترة، قراءة أبي عمرو حذرون، ولهذا قال ابن جرير -رحمه الله-: إن الحاذر والحذِر معناهما متقارب، بل قال بعضهم كأبي عبيدة معمر بن المثنى: إن المعنى واحد، مع أن بعض أصحاب معاني القرآن مثل الزجاج والفراء فرق بينهما، فقال: الحذِر من كان ذلك طبيعة له، الحذِر دائماً يعني مَن طبيعته الحذَر، صفة له ثابتة، وأما الحاذر فهو الذي يحذر الآن، والحاذر متيقظ في أي وقت، أي مستعد، ويكون الحذِر متيقظاً دائماً على هذا التفريق، فعلى التفريق بينهما: وإنا لجميعٌ حاذرون يعني الآن أعلنت حالة الطوارئ كما يقال وأما إذا قال: حذِرون -على التفريق بينهما- فيعني أن ذلك كان من ديدنهم معهم لما يتخوفونه منهم ويتوقعونه منهم، ولهذا كان يقتل أبناءهم إضعافاً لهم فلا تكون لهم قوة وظهور وشوكة.

وقرأ طائفة من السلف {وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ}، أي: مستعدون بالسلاح.

لاحظْ ابن كثير -رحمه الله- مشى على التفريق بينهم، في الأولى {وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ} حاذرون أي: نحن كل وقت نحذر من غائلتهم، وقرأ طائفة من السلف {وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرُونَ} أي مستعدون بالسلاح، لكن حاذرون الأولى أي نحن كل وقت عكس المعنى الذي ذكره أصحاب معاني القرآن: حذِر من كان ذلك طبيعة له، حاذر يعني الآن متيقظ، ابن كثير -رحمه الله- قال: وإنا لجميعٌ حاذرون أي نحن كل وقت نحذر من غائلتهم، وذكر أن القراءة الثانية أي مستعدون بالسلاح، فالقراءة الأولى جاء بـــ"أن" الأصل أنه حذرون، والثانية قال: وقرأ بعض السلف: حذِرون؛ لأن الأصل أنه يمشي على قراءة حفص.

فهم دائماً مستعدون لبني إسرائيل بالسلاح، هذه سجيتهم، لا أنهم يحملون السلاح في وقت الاحتدام وتوقع المواجهة وما أشبه ذلك، وهذا يدل على أن الاستعداد هنا في ذلك الوقت بعينه -والله تعالى أعلم-، ولهذا تجد أن بعضهم لربما يعبر بمثل هذا فيقول لك: حاذرون مستعدون بالسلاح، فبعضهم يقول: المعنى واحد أصلاً لكن ابن كثير هنا واضح أنه فرق بينهم، وإلا فسيبويه يقول: المعنى واحد، هذه إذا كان اختلف فيها هؤلاء الأئمة من أهل اللغة سيبويه والفراء والزجاج وأبو عبيدة نعم فأهل اللغة يختلفون فيها، وابن جرير -رحمه الله- لم يقل: إن المعنى متحد، ولا إن المعنى مختلف، وإنما قال: المعنى متقارب، حذِر وحاذر، ولاشك أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فلان حذِر يعني أن ذلك طبيعة له، فلان حاذر فهو حذِر وزيادة، فيه زيادة -والله أعلم-، أما كون المعنى واحداً متفقاً فيمكن أن يقال: في أصل المعنى متفق، لكن الزيادة لابد أن تكون، زيادة في المعنى.

وإني أريد أن أستأصل شأفتهم، وأبيد خضراءهم. فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم.

قال الله تعالى: {فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ} أي: فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم، وتركوا تلك المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق، والملك والجاه الوافر في الدنيا.

{كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ}، كما قال تعالى: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ} [سورة الأعراف:١٣٧]، وقال تعالى: {وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ...} الآية [سورة القصص:٥-٦].

قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} هذه الآية مفسرة لقوله: {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا} لبني إسرائيل، و{وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ} [سورة الدخان:٢٨] هم بنو إسرائيل، لكن هنا {كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ} يعني أرض مصر، وأما قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} فليس هذا محل اتفاق بين المفسرين أنها أرض مصر؛ لأن بعض السلف يقول: هي أرض الشام، هي التي بارك الله فيها، وهي الأرض المباركة، وبعضهم يقول: أرض مصر، وبعضهم يقول ما هو أعم من ذلك، وذكرت حينها أن المؤرخين يقولون: إنه في التاريخ لا يعرف رجوع لبني إسرائيل بعدما جاوزوا البحر ونجوا من الغرق واتجهوا إلى الشام، لا يعرف أنهم رجعوا إلى مصر مرة أخرى، لكن يقال: كلام الله -تبارك وتعالى- حق وصدق، والله هو العليم الأعلم وأخبر أنه أورثها بني إسرائيل، وحتى لو لم يثبت لهم رجوع فإنها تبقى تحت سلطانهم وتدبيرهم، لأن بلاد مصر خلت من القادة، وخلت من الجيش، ولم يبقَ فيها إلا النساء ومن في حكمهن ممن لا تدبير لهم، وإلا فالذين يديرون البلد ويحمونها ونحو ذلك كلهم قد هلكوا في وسط البحر، فبقيت البلد مكشوفة خالية، فموسى -عليه الصلاة والسلام- أورثه الله، أورث الله الإسرائيليين أرض مصر وبلاد الشام، وبلاد مصر هي بلاد مرتبطة كل الارتباط، وعبر التاريخ عموماً كانت الجيوش التي تغزو مصر أو تحتل مصر أو نحو ذلك كانت تأتي عن طريق الشام عبر التاريخ السلطان الذي يحصل على مصر واليد التي توضع عليها كانت تأتي من قبل الشام؛ ولهذا كان محمد علي باشا حريصاً على أن يُدخل الشام تحت سلطانه، ويطالب العثمانيين بهذا ويلح عليهم ويساومهم في مطالبهم على تحقيق هذا المطلب؛ لأن قبله وقعت أشياء كثيرة كانت تأتي من قبل الشام، فلا غرابة أن تكون مصر تابعة لبلاد الشام مع هذا الأمر العظيم الذي حصل من هلاك فرعون ومن معه، بل يذكر بعضهم أن البلاد المصرية في التاريخ لم يحكمها أهلها غالباً حتى الفراعنة لو قرأتم في تاريخهم لوجدتم أن القبط جاءوا من خارج مصر، وعلى مدى التاريخ عمرو بن العاص لما حكم مصر فتح مصر وحكمها المسلمون لم يحكمها أحد من أهلها، وبعد ذلك جاء من جاء، وفي وقت الدولة العثمانية كانت ترسل من قبلها موفداً لحكم البلاد المصرية، وبعض هؤلاء كان رقيقاً مملوكاً، ومحمد علي ومن معه كانوا من الألبان، ما كانوا من المصريين، ويقول بعضهم: إن وصية النبي -صلى الله عليه وسلم- في أهل مصر يعني ربما كانت تشير إلى هذا، ولكن لا يخلو من بُعد، والله أعلم.

{فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ

الآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة الشعراء:٦٠-٦٨]، **ذكر غير واحد من المفسرين: أن فرعون خرج في محفل عظيم وجمع كبير، وهو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه.**

خرج في محفل يعني في جمع من الناس عظيم؛ لأن المحفل هو مكان الاحتفال، وفي طبعة طيبة **خرج في جحفل عظيم.**

أولي الحل والعقد والدول، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود، {فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ} أي: وصلوا إليهم عند شروق الشمس، وهو طلوعها.

{فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ} أي: رأى كل من الفريقين صاحبه، فعند ذلك {قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ}، وذلك أنه انتهى بهم السير إلى سِيف البحر، وهو بحر القُلزم.

بحر القُلزم هو البحر الأحمر، وبعض أصحاب الإعجاز العلمي يقول: إنه توجد أخاديد داخل البحر فيها نار، فالفراعنة سقطوا فيها ولذلك قال: {أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا} [سورة نوح:٢٥]، وهذا كلام غير صحيح.

فصار أمامهم البحر، وفرعون قد أدركهم بجنوده، فلهذا قالوا: {إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ} أي: لا يصل إليكم شيء مما تحذرون، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير هاهنا بكم، وهو لا يخلف الميعاد.

وكان هارون -عليه السلام-، في المقدمة، ومعه يوشع بن نون، ومؤمن آل فرعون وموسى -عليه السلام- في الساقة، وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أنهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون، وجعل يوشع بن نون، أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى -عليه السلام-: يا نبي الله، هاهنا أمرك الله أن تسير؟ فيقول: نعم، واقترب فرعون وجنوده، ولم يبقَ إلا القليل، فعند ذلك أمر الله نبيه موسى أن يضرب بعصاه البحر، فضربه، وقال: انفلقْ بإذن الله.

أمر الله نبيه موسى -عليه السلام- أن يضرب بعصاه البحر، فضربه وقال: انفلقْ بإذن الله.

والله -تبارك وتعالى- أعلمَ موسى -صلى الله عليه وسلم- قبل ذلك وأخبره أنكم متبعون، وكذلك –أيضا- واترك البحر رهواً، فأعلمه الله -تبارك وتعالى- قبل هذا.

قال الله تعالى: {فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} أي: كالجبل الكبير، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومحمد بن كعب، والضحاك، وقتادة، وغيرهم.

صار البحر اثني عشر طريقاً لكل سبط طريق، يعني صار فيه طُرق لأسباط بني إسرائيل، صار كل فرق كالطود العظيم، وقف الماء كأنه جبال، وكانوا يمرون بين هذه الطرق كأنهم يمشون على اليابسة.

وقال عطاء الخرساني: هو الفَجّ بين الجبلين.

وقال ابن عباس: صار البحر اثني عشر طريقًا، لكل سبط طريق، وزاد السدي: وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض، وقام الماء على حَيْله كالحيطان، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته، فصار يَبَسا كوجه الأرض، قال الله تعالى: {فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لا تَخَافُ دَرَكًا وَلا تَخْشَى} [سورة طه:٧٧].

وقال في هذه القصة: {وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ} أي هنالك.

قوله: **على حَيْله كالحيطان** يعني: على حيله كالحيطان.

وقد يفهم منه أن البحر لاسيما مع قوله فانفلق والانفلاق الانشقاق، فكان كل فرق كالطود العظيم، يعني كأن البحر انفلق عنهم فمشوا على الأرض اليابسة، فصار الماء في نواحيه كالجبال، فصار طريقاً يبساً، وهذا يدل -والله أعلم- على أن البحر انشعب عنهم بالماء، فصاروا يمشون على اليابسة، فصار الماء متوقفاً في نواحيه هذا الذي يفهم من ظاهر الآية -والله تعالى أعلم- وهذا أبلغ وأعظم، وأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- في بعض الحروب في العراق مشوا على الماء عبروا دجلة في واقعة مشهودة معلومة مع سعد بن أبي وقاص -رضي الله تعالى عنه-، ولكن كون البحر ينشعب بهذه الطريقة ويبقى مثل الجبال العظيمة على جوانب هذه الطرق ثم يمشون في وسط البحر على أرض يابسة لا تزوغ فيها الأقدام هذا عجيب، تعرفون أرض البحر كيف ما فيها من أثر أذى الماء وما فيها من الأشياء التي اجتمعت عبر قرون متطاولة فصار بهذه المثابة.

وقال في هذه القصة: {وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ} أي هنالك.

هذا ظرف مكان للبعيد.

قال ابن عباس، وعطاء الخرساني، وقتادة، والسدي: {وَأَزْلَفْنَا} أي: قربنا فرعون وجنوده من البحر وأدنيناهم إليه.

{وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ} أي: أنجينا موسى وبني إسرائيل ومن معهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد، وأغرق فرعون وجنوده، فلم يبق منهم رجل إلا هلك.

ثم قال تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً} أي: في هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة، {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} تقدم تفسيره.

يحتمل أن يكون المراد بقوله: {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} قوم فرعون، مع ما رأوا من هذه الآيات العظيمة انفلاق البحر، وما حصل قبله أيضاً من رؤية العصا، وما حصل من موسى -عليه الصلاة والسلام- مع السحرة، {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} ما آمن إلا قلة كآسية امرأة فرعون، ومؤمن آل فرعون، ويحتمل أن يكون المراد بقوله: {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} يعني من وجه إليهم هذا الخطاب وقص عليهم هذا القصص وهم المشركون في زمان النبي -صلى الله عليه وسلم- فلم ينتفعوا بذلك، ولم يؤثر فيهم، وعلى الأول: وما كان أكثرهم مؤمنين أي جملة قوم فرعون وليس المقصود الجيش الذي معه، لأنه لم يؤمن أحد منهم، وعلى الثاني كما يقول سيبويه: ما كان أكثرهم يعني المشركين الذين كانوا في زمن النبي -صلى الله عليه وسلم-. والله -تبارك وتعالى- يقول: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} فحينما شاهدوا آية موسى -صلى الله عليه وسلم- هذه الآية العظيمة لم ينتفعوا بها وبقوا على المكابرة وما تركوا موسى وشأنه، فقد كان يطلب من فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل فلما رأى هذه الآية لم يذعن ولم يرسلهم ولما خرجوا من عند أنفسهم في وقت غفلة الناس ما غض الطرف عنهم، وإنما أعلن الحذر، وجهز الناس والجيش لملاحقتهم، وكان يمكن أن يقال له: دع هؤلاء يخرجون من مملكتك فتستريح منهم، ولكن أهل الشر والباطل والمنكر لا يمكن أن

يتركوا أهل الإيمان وشأنهم، وفي آخر المطاف حينما جاءوا ووجدوا البحر بهذه الصورة العجيبة التي هي من أعظم الآيات كيف يتحول البحر وينفلق بهذه الطريقة، ويمشون على أرض يابسة، ويرون الماء مثل الجبال على جوانب هذه الطرق، ومع ذلك يمعنون في كفرهم وملاحقة أهل الإيمان مع مشاهدة هذه الآيات فهذا كما قال الله -عز وجل-: {وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا} [سورة الأعراف:١٤٦]، وقال: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ} [سورة الأنعام:١١١]، وهذا حال من طمس الله -عز وجل- بصيرته، ونحن في زمان نريد ألا يصدر من الكفار أي أذى من قول أو فعل ونستغرب هذا وكأننا لا نعرف سنة الله -عز وجل- في الصراع بين الحق والباطل ونريد من أهل النفاق ألا يصدر منهم إلا كل قول حسن، وفعل حسن، وهذا لا يمكن، كانوا في زمان النبي -صلى الله عليه وسلم- يتكلمون "سَمّنْ كلبك يأكلْك"، {لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا} [سورة المنافقون:٧]، {لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ} [سورة المنافقون:٨]، ولكم أن تتصوروا أن كبير المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول كان عنده زاوية في صحيفة، أو عمود صحفي فتروا ما سيكتب عدو الله، ولا نستغرب حينما نجد أعداء الله من هؤلاء المنافقين ليس لهم شغل إلا أهل الإيمان، فهذا فرعون إلى آخر لحظة يرى البحر منفلقاً، ومع ذلك يمعن في كفره ومحاربته إلى آخر لحظة، هذه سنة الله -عز وجل- في خلقه {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة يوسف:١٠٣]، {وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ} [سورة الأنعام:١١٦] موفقٌ من لزم الصراط المستقيم الكتاب والسنة، وكما قال الله -عز وجل-: {وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ} [سورة الأنعام:١١٣]، والله المستعان.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشعراء من الآية ٦٩ إلى ١٢٢

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ} [سورة الشعراء:٦٩-٧٧].

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم -عليه السلام- إمام الحنفاء، أمر الله رسوله محمدا -صلى الله عليه وسلم- أن يتلوه على أمته، ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة الله وحده لا شريك له، والتبري من الشرك وأهله؛ فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل، أي: من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نَشأ وشبّ أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله -عز وجل-: {إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ} أي: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟

{قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ} أي: مقيمين على عبادتها ودعائها.

**{قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} يعني: اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئا من ذلك، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون، فهم على آثارهم يُهرعون، فعند ذلك قال لهم إبراهيم: {قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ} أي: إن كانت هذه الأصنام شيئا ولها تأثير، فَلْتَخْلُص إليّ بالمساءة، فإني عدو لها لا أباليها ولا أفكر فيها، وهذا كما قال تعالى مخبرًا عن نوح، -عليه السلام-: {فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ} الآية [سورة يونس:٧١]، وقال هود -عليه السلام-: {إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [سورة هود:٥٤-٥٦]، وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم وقال: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ} الآية [سورة الأنعام:٨١]، وقال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ...} إلى قوله: {حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} [سورة الممتحنة:٤]، وقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [سورة الزخرف:٢٦-٢٨] يعني: لا إله إلا الله.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله تعالى عن قيل إبراهيم -عليه السلام-: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ} الذي عليه الجمهور من المفسرين أن الضمير أعني "الهاء" في قوله: {فَإِنَّهُمْ} يعود إلى آلهة المشركين، إلى معبوداتهم {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي} يعني أعداء لي، والعدو جنس يصدق على الواحد والجمع، سواء كان بالإضافة أو بدون إضافة كما مضى من نظائره في مواضع من هذا التفسير كما في سورة النور: {أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ} [سورة النور:٣١]، أي الأطفال، وهكذا في قوله تعالى في الإضافة: {أَوْ صَدِيقِكُمْ} [سورة النور:٦١] يعني: أو أصدقائكم، وهكذا في قوله: {لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ} [سورة الممتحنة:١]، جمع: يعني أعدائي وأعداءكم {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي} أي أعداء لي، يعني الآلهة والمعبودات على قول عامة أهل العلم، وإن كان منهم من قال بأن ذلك يرجع إلى آبائهم الأقدمين، قال: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي} قالوا فالضمير يرجع إلى أقرب مذكور وهم الآباء فكانوا على عبادة الأصنام فهم أعداء له، ومن جهة أخرى فإنهم قالوا ذلك باعتبار أنهم نظروا إلى أن المعبودات عبارة عن أصنام، لا يصدر منها عداوة أو محبة فهي جمادات، {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي} والعدو هو الذي تعاديه ويعاديك، فتقول: هذه السارية عدوي مع أنها لا يصدر منها شيء، فحملهم هذا النظر على القول بأن الضمير يرجع إلى الآباء، وهذا فيه نظر؛ لأن السياق لا يساعد عليه -والعلم عند الله -تبارك وتعالى- بل المقصود تلك المعبودات، وجّه بعض أهل العلم ذلك، الذين قالوا بأنها المعبودات قالوا بأنها تنقلب إلى العداوة في الآخرة، تكون أعداء لهم هذه المعبودات التي عبدوها من دون الله -جل جلاله-، كما يدل عليه القرآن، وبعضهم يقول: هذا من المقلوب {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي} أي فإني عدو لهم؛ لأن من عاديته عاداك، هكذا قال الفراء، وهذا خلاف الأصل، فالأصل أن يكون الكلام على وجهه دون دعوى القلب، والذي يظهر -والله تعالى أعلم- أن هذا لا إشكال فيه، وهذه المعبودات من دون الله -تبارك وتعالى- التي قالوا نعبد أصناماً- هو يعاديها وهي أيضاً تنقلب معادية لأصحابها في الآخرة، وإن لم يكن هذا المراد أعني أنها باعتبار ما يكون بالآخرة؛ لأن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- قال: {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي} ولم يقل: عدو لهم؛ لأنها تعادي من عبدوها لكن على كل حال هم جعلوها آلهة، وعبدوها من دون الله -تبارك وتعالى- ولم يكتفوا أن ينزلوها منزلة العقلاء، فهي عدو لإبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، هي عدو لأهل الإيمان باعتبار أنه يعاديها، فالعداوة تصدر من الطرفين، تقول: هذا عدو لي، وقد تكون العداوة متبادلة بين الطرفين، وقد تكون العداوة صادرة منه هو فقط، وقد تكون هذه العداوة صادرة منك أنت نحوه، فتقول في حقه: هذا عدو لي وإن لم يصدر منه شيء بالنسبة إليك، فعندما كانوا يرجون نفعها ودفعها وشفاعتها ونحو ذلك إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وصفها بالعداوة يعني على خلاف ما كانوا يعتقدون فيها، وقوله: {إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ} الاستثناء هنا باعتبار أنهم يعبدون الأصنام فهي عدو لي إلا رب العالمين يكون الاستثناء منقطعاً؛ لأن رب العالمين ليس من جنس المستثنى منه، وهذا يسمونه الاستثناء المنقطع، وهذا الذي ذهب إليه كثير من أهل العلم، وقال الزجاج بقول عامة العلماء، لكنه قال: ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً باعتبار أن هؤلاء كانوا يعبدون الأصنام، وكانوا يعبدون الله معها يشركون به، فهو يقول في هذه المعبودات: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ

وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ} يعني من معبوداتكم، فيكون الاستثناء متصلاً بهذا الاعتبار.

{الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} [سورة الشعراء:٧٨-٨٢].

يعني: لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء، {الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ} أي: هو الخالق الذي قدر قدرًا، وهدى الخلائق إليه، فكل يجري على ما قدّر، وهو الذي يهدي من يشاء ويُضل من يشاء.

{وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ} أي: هو خالقي ورازقي، بما سخر ويَسّر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المُزْنَ، وأنزل الماء، وأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد، وأنزل الماء عذبًا زلالا لــ {نُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا} [سورة الفرقان:٤٩].

وقوله: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} أسند المرض إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلْقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدبا، كما قال تعالى آمرًا للمصلي أن يقول: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} إلى آخر السورة [سورة الفاتحة:٦-٧]، فأسند الإنعام إلى الله، -سبحانه وتعالى-، والغضب حُذف فاعله أدباً، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن: {وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} [سورة الجن:١٠]؛ وكذا قال إبراهيم: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} أي: إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه.

{وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ} أي: هو الذي يحيي ويميت، لا يقدر على ذلك أحد سواه، فإنه هو الذي يُبدئ ويعيد.

{وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} أي: هو الذي لا يقدر على غَفْر الذنوب في الدنيا والآخرة، إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله، وهو الفعال لما يشاء.

هذا المعنى الذي نبه عليه الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في قوله -تبارك وتعالى-: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ} من جهة التأدب مع الله -تبارك وتعالى- فيما يضاف إليه من الأوصاف أو التعبير يقال عن الله -جل جلاله- وهذا معنى لطيف ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا، وبعض المفسرين ينبهون عليه في مواضع كقوله -تبارك وتعالى- في سورة الفاتحة {صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ} [سورة الفاتحة:٧]، أضفت الإنعام إلى الله عليهم {غَيرِ المَغضُوبِ} ما قال: الذين غضبت عليهم، لما كان الإنعام محبوباً مطلوباً أضافه إلى الله -تبارك وتعالى-، ولما كان الغضب والانتقام يكون عقوبة حذف الفاعل فأضاف إليه ما يتصل بالإنعام والإفضال، وحذف الفاعل فيما يختص بالعقوبة والانتقام مع أن ذلك جميعاً من الله -جل جلاله-، وهكذا تجد مثل هذا الكلام في مدارج السالكين للحافظ ابن القيم، وفي تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي، وفي القواعد الحسان له ذكر أمثلة على هذا، وكما في سورة الكهف أيضاً قوله -تبارك وتعالى-: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا} [سورة الكهف:٧٩]، فأضاف العيب إليه، وفي الجدار {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا} [سورة الكهف:٨٢] فأضاف ذلك إلى الله -جل جلاله-، وهذا له أمثلته في القرآن، ولكنه بطبيعة الحال

ليس بمطرد في القرآن، فمثل هذا يفيد الناظر فيه في التأدب في المخاطبة، ولا شك أنها مطلوبة سواء كان فيما يتصل بالإضافات أو في التعبير بالألفاظ التي لا تحتمل المعاني الباطلة، {لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا} [سورة البقرة:١٠٤]، ولكن النوع الأول كما سبق ليس بمطرد؛ فإنك قد تجد في القرآن أشياء أضيف الفعل فيها إلى الله -تبارك وتعالى- وإن كان ذلك من جنس أوصاف الانتقام أو الغضب أو نحو ذلك، كقوله: {وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ} [سورة النساء:٩٣] فتجد أمثلة لهذا متنوعة في القرآن، لكن هذا من اللطائف وليس من صلب التفسير، وقوله -تبارك وتعالى- عن قول إبراهيم -صلى الله عليه وسلم-: {وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} [سورة الشعراء:٨٢]، الطمع أصله يدل على معنى الرجاء، وتكلم أهل العلم على هذا الموضع، فإن بعضهم يقول: إنه قصد بقوله: {أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} أن ذلك على ظاهره وهو الرجاء، وبعضهم يقول: قال ذلك تواضعاً، ولا شك أن المؤمن يطمع بمغفرة الله -تبارك وتعالى- له، ولخطيئته يوم الدين، وأما خطيئته التي أشار إليها فبعضهم يقول: قال ذلك تواضعاً لربه، والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- الراجح أنه تجوز عليهم الخطيئة، وإنما لا تقع منهم الكبائر ولا يصرون على الصغائر، كما لا تقع منهم الصغائر التي يقال لها: صغائر الخسة، كالأشياء المدنسة للعرض، وإن كانت من الصغائر، وخطيئة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- المشار إليها حاول بعض أهل العلم أن يخصصها بنوع أو بفعل معين، فبعضهم يقول: حينما قال: {هَذَا رَبِّي} [سورة الأنعام:٧٦]، وهذا ليس بخطيئة؛ لأنه قال ذلك مُناظراً لا ناظراً، ومن باب التنزل مع الخصم، وبعضهم يقول: هو ما جاء من قوله عن زوجه سارة: هذه أختي، وصفها بأخته مع أنها زوجته، وهذا في الواقع من قبيل المعاريض، وهكذا حينما قال: {إِنِّي سَقِيمٌ} [سورة الصافات:٨٩]، وهكذا حينما قال: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ} [سورة الأنبياء:٦٣] لما حطم الأصنام، هذا كله من قبيل المعاريض، ولا حاجة للتكلف في مثل هذه الأمور، وإنما من شأن المؤمن أن يطمع بمغفرة الله -عز وجل- لخطاياه، وقوله هنا: {خَطِيئَتِي} يمكن أن يفسر بخطاياي، ولا داعي لتخصيصه بخطيئة واحدة كما فعله بعض المفسرين، فالخطيئة هنا أضيفت إلى المعرفة، وذلك يكسبها معنى الجمع أو العموم، يعني خطاياي.

{رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [سورة الشعراء:٨٣-٨٩].

وهذا سؤال من إبراهيم -عليه السلام-، أن يؤتيه ربه حُكْما، قال ابن عباس: وهو العلم.

قال ابن عباس: هو العلم، وبعضهم يقول: هو المعرفة، وهذا داخل في الذي قبله، وبعضهم يقول: هو النبوة والرسالة، {رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا} وحينما قال إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لقومه ما قال، وحصلت منه هذه المحاورة والمجادلة لهم كان ذلك بعد النبوة، وحصلت له المعجزة العظيمة ألقوه في النار فلم يحترق، ثم مر في طريقه إلى الشام بعبدة الكواكب وحصلت المناظرة منه لهم، فتفسير الحكم بالنبوة والرسالة فيه إشكال؛ لأن ذلك قد حصل له، ولهذا قال ابن عباس -رضي الله عنهما- {هَبْ لِي حُكْمًا}: أي علماً، وهذا العلم يشمل العلم بحدود الله -عز وجل- وأحكامه، والحكم يأتي بهذا المعنى، والله -عز وجل- يقول: {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ} [سورة الأنعام:٨٩] الكتاب، والحكم، والنبوة، والقاعدة أن التأسيس مقدم على

التوكيد فلا يقال: إن العلم هو الكتاب، ولا يقال: هو النبوة في الآية التي في سورة الأنعام {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ} فيمكن أن يفسر الحكم بهذا العلم، أو الحكم والفصل بين الناس في الخصومات.

وقوله: {وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} أي: اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- عند الاحتضار: ((اللهم الرفيق الأعلى))[1]، قالها ثلاثا.

{رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا} الحكم: ابن جرير -رحمه الله- فسره بالنبوة، وهذا أظنه قريباً -والله أعلم-؛ لأن الله أعطاه نبوة فكيف يطلب شيئاً قد حصل وتحقق له؟، وحمل ابن جرير -رحمه الله- قوله: {وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} على الرسالة، أي اجعلني في جملتهم يعني الرسل -عليهم الصلاة والسلام- {هَبْ لِي حُكْمًا} يعني النبوة {وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} في الرسالة، ولكن مثل هذا -والله أعلم-، كأنه قصرٌ للمعنى على ما هو أخص -والله أعلم-، فمن أخص من مدلول اللفظ في ظاهره، ألحقني في الصالحين يعني في جملتهم، ومن في حكمهم يكون من جملة الصالحين، وفي عدادهم في الدنيا والآخرة، ويدخل على رأس هؤلاء الأنبياءُ والمرسلون -عليهم الصلاة والسلام-، وهذا ظاهر كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أي اجعلني مع الصالحين في الدنيا والآخرة، هذا أعم من إلحاقه بهم في الرسالة.

وقوله: {وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ} أي: واجعل لي ذكرًا جميلا بعدي أذكر به، ويُقتدى بي في الخير، كما قال تعالى: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [سورة الصافات:١٠٨-١١٠].

وهذا الذي حصل، أجاب الله دعاءه؛ ولهذا أجمعت الطوائف وأهل الملل على تعظيم إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وكل طائفة تدعيه؛ ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا} [سورة آل عمران:٦٧]، وقال: {هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ} [سورة آل عمران:٦٦]، و {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللّهُ} [سورة البقرة:١٤٠]، فاليهود يدعون أنه منهم، والنصارى يدعون أنه منهم، والمسلمون يقولون هو إمام الحنفاء.

وقوله: {وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ} أي: أنعم عليّ في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم.

قوله: {وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ} أي: تلك الجنة، {تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا} [سورة مريم:٦٣]، وقال: {أُورِثْتُمُوهَا} [سورة الزخرف:٧٢] وكذلك في قوله: {وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ} [سورة الزمر:٧٤]، بعض أهل العلم يقول: أرض الجنة كما سبق، فالإيراث المراد به إيراث الجنة، وإذا أردت أن تنقر في هذه اللفظة، كلمة الإيراث، وفي مدلولها فهنا قد يكون هذا التنقير سبباً للإشكال أو الاختلاف، ولهذا لما حاول بعض أهل العلم أن يدقق في مدلول هذه اللفظة قال: أورثهم مكان الآخرين؛ لأن كل كافر له منزل في الجنة والنار، فإذا دخل أهل النار النار، وأهل الجنة الجنة فإن أهل الجنة يرثون مع منازلهم منازل أهل النار في

---

١ - رواه البخاري، كتاب المغازي، باب آخر ما تكلم به النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٤١٩٤)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب في فضل عائشة -رضي الله تعالى عنها-، برقم (٢٤٤٤).

الجنة هذا معنى الإيراث، لكن في الاستعمال هل يشترط أن يكون الإيراث بعد القوم الآخرين؟ في قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ} قال كثير من المفسرين: إن الأرض هذه، وليست أرض الجنة، لابد أن يكون ذلك بعد قوم آخرين {أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ}، لا حاجة لمثل هذا، فإذا صار ذلك إليه فإن ذلك يمكن أن يطلق عليه هذا، والله أعلم.

وقوله: {وَاغْفِرْ لأبِي...} الآية، كقوله: {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ} [سورة إبراهيم:٤١]، وهذا مما رجَعَ عنه إبراهيم، -عليه السلام-، كما قال تعالى: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ...} إلى قوله: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [سورة التوبة:١١٤]، وقد قطع الله تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه، فقال: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ...}، إلى قوله: {وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ} [سورة الممتحنة:٤].

إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- كان يطمع ويرجو إيمان أبيه فوعده بالاستغفار، {فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ} بمعنى أنه مات على الكفر تبرأ منه، ولما قال بعض المسلمين: استغفر إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لأبيه، وأرادوا أن يستغفروا لآبائهم أنزل الله -تبارك وتعالى-: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ}، {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} [سورة التوبة:١١٣]، والأسوة التي ذكرها هنا {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ...}، وذكرت هناك أن الاستثناء {إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ} [سورة الممتحنة:٤]، بعضهم يقول فيه: هذا الاستثناء من الأسوة، {لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ} [سورة الممتحنة:٤] إلا في قوله: {لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ} فتكون أسوة فيها استثناء، وأخذ بعضهم من هذا -كما سبق- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أفضل من إبراهيم، أي من جهة أن الله في سورة الأحزاب ذكر الأسوة بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وأطلق {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [سورة الأحزاب:٢١] من غير استثناء، وأن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- ذُكر أسوة مع الاستثناء {إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ} فالأسوة المطلقة أكمل من الأسوة التي فيها استثناء، لكن هذا ليس محل اتفاق في المعنى، فمن أهل العلم من يقول: إن الاستثناء هناك منقطع {إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ} أي لكن قول إبراهيم، فتكون الأسوة مطلقة، ويكون الائتساء به من غير استثناء.

وقوله: {وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ} أي: أجرني من الخزي يوم القيامة ويوم يبعث الخلائق أولهم وآخرهم.

وروى البخاري في قوله: {وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ} عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إن إبراهيم رأى أباه يوم القيامة عليه الغَبَرَةُ والقَتَرَةُ))[٢].

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة -رضي الله عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((يلقى إبراهيم أباه، فيقول: يا رب، إنك وعدتني أنك لا تخزيني يوم يبعثون، فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين))[٣].

---

٢ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الشعراء، برقم (٤٤٩٠).

٣ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب تفسير سورة الشعراء، برقم (٤٤٩١).

هكذا رواه عند هذه الآية. وفي أحاديث الأنبياء ولفظه: ((يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قَتَرَةٌ وغَبَرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب، إنك وعدتني ألا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يُقال: يا إبراهيم، ما تحت رجليك؟ فينظر فإذا هو بِذِيخٍ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار))[٤]، ورواه أبو عبد الرحمن النسائي في التفسير من سننه الكبرى.

المراد بالخزي هنا الفضيحة، والقترة: هي تغير في الوجه في هيئته وشكله من سواد ونحوه، والذكر من الضباع يقال له: ذِيخ، يعني أنه يقلب بهذه الصورة فلا يُعرف، ما يعرف الناس أن هذا أب لإبراهيم -عليه الصلاة والسلام-، والله المستعان.

وقوله: {يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ} أي: لا يقي المرءَ من عذاب الله مالُه، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا: {وَلا بَنُونَ} ولو افتدى بِمَنْ في الأرض جميعا، ولا ينفعُ يومئذ إلا الإيمانُ بالله، وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك.

قوله: {لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ} لا ينفع شيء لا المال، ولا البنون، والعشيرة، ولا أحد، ولهذا قال: {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} [سورة البقرة:٤٨]، فنفى عنهم هذه الأمور الثلاثة التي يحصل بها الخلاص إما بواسطة أن يشفع له أحد أو يكون ذلك بالافتداء يفتدي نفسه بغيره، أو يكون ذلك بالقوة والغلبة يأتي من ينصره ويخلصه بالقوة، فنفى عنهم هذه الأشياء الثلاثة، وهنا خص المال والبنون {لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ}؛ لأنهما أقرب ما يلي الإنسان وينصره وهما مما يعتز به المرء؛ لأن ماله وولده من كسبه، ثم يأتي بعد ذلك ابن العم، والأخ والعشيرة ونحو ذلك، {يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ} [سورة عبس:٣٤-٣٦]، كل هؤلاء لا ينفعونه لكن أقرب ذلك إليه من ناحية الانتفاع والنصرة والتخليص من المكاره المال فهو تحت يده يتصرف به، ويفتدي نفسه، وكذلك الأبناء، ولهذا كان الرجل يفتخر بكثرة الأبناء -ولهذا جاء في الآيات {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ} [سورة الكهف:٤٦]، ولم يقل: والأولاد؛ لأن لفظ الأولاد يشمل البنات والبنين- لأنه يعتز بهم ويحتمي بهم، وهكذا من جهة المكاسب والتحصيل كل ذلك يرجع إلى البنين دون البنات.

ولهذا قال: {إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} أي: سالم من الدنس والشرك، قال ابن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن الله حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث مَنْ في القبور، وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم: هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قال الله: {فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} [سورة البقرة:١٠].

وقال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب السالم من البدعة، المطمئن إلى السنة.

كل ما ذكر يرجع إلى شيء واحد، وهذا من قبيل اختلاف التنوع، والقلب السليم: السلامة خلاف المرض، والكافر والمنافق قلبه مريض، والقلب السليم هو القلب الذي سلم من الشرك بالله تعالى، وسلم من مرض

---

٤ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً} [سورة النساء:١٢٥]، برقم (٣١٧٢)

النفاق، ولم يتلطخ بشيء من الأمراض التي يحصل بها انحطاط مرتبة العبد سواء كان ذلك من قبيل الشكوك التي تزلزل إيمانه سواء كان بالله -تبارك وتعالى-، أو بالملائكة، أو الرسل، أو القدر كما يقول ابن جرير -رحمه الله-، أيًّا كان فإن هذه المعاني ترجع إلى شيء واحد القلب السليم، وأعظم ما تكون السلامة منه هو الإشراك هذا أصل في النجاة لا يمكن أن تحصل إلا بهذا، ثم بعد ذلك يحصل التفاوت بين الناس في سلامة القلب، فمن الناس من تكون سلامته أكمل من غيره، فلا تزاحم محبة الله تعالى في قلبه محبة أحد من المخلوقين، فالقلوب التي ابتليت بالعشق، فصار ذلك يملؤها ويشغلها عن ذكر الله ومحبته والإقبال عليه ليست كالقلوب الصافية التي مُلئت بمحبة المعبود -جل جلاله- وقل مثل ذلك في القلوب التي تشربت البدع والأهواء والضلالات ليست كالقلوب التي سلمت من هذا وصاحبها على السنة، وهكذا القلوب التي قد تشربت الشبهات ليست كالقلوب المصقولة التي سلمت من ذلك كله، والله المستعان.

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "قوله -تعالى ذكره-: {يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} والسليم هو السالم وجاء على هذا المثال لأنه للصفات كالطويل والقصير والظريف فالسليم القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له كالعليم والقدير وأيضا فإنه ضد المريض والسقيم والعليل، وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه"[٥].

هذا الأمر الجامع: أراد أن يجمع المعنى، وعامة المفسرين أنه السالم من الشرك، فالسلامة من الشرك تتحقق منها النجاة، وأنه لا يخلد في النار، ولكن القلب إذا كان متلطخاً بما دون الشرك فإن ذلك لا تحصل له السلامة الكاملة.

وقال ابن القيم -رحمه الله-: "والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه، والتوكل عليه والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده"[٦].

القلب كامل السلامة ولكن النجاة لا تتوقف على هذا، بمعنى الخلود في النار أو النجاة من النار، والأساس في هذا قضية السلامة من الإشراك، ومع ذلك فإن القلوب تتفاوت فيه، ولكن لا تتوقف عليه النجاة بمعنى الخروج من النار، قد يكون الإنسان في قلبه شيء من الأهواء ولكنه لا يخلد في النار، في قلبه شهوات تزاحم محبة الله، والإقبال عليه تشغله وتعوقه، ولكنه لا يخلد في النار، فالسلامة الكاملة ما ذكره الحافظ ابن القيم، فهذا مثل الإيمان يتفاوت، إسلام المرء يتفاوت كما أن الكفر يتفاوت، والنفاق يتفاوت، والإشراك يتفاوت، {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} [سورة الجاثية:٢٣]، صار الآن هواه يطاع ويتبع فهذا نوع من الإشراك، ولكن هذا الإشراك لا يخلد في النار، وقل مثل ذلك في الكفر، الكفر يتفاوت فمنه ما يخرج من الملة، ومنه ما لا يخرج من الملة، ومنه كفر عملي، وكفر اعتقادي، وهكذا النفاق منه ما هو نفاق أكبر، ومنه ما هو نفاق

---

٥ - إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، لابن القيم(٧/١).

٦ - المصدر السابق (٧/١).

أصغر، ولهذا تجد في كلام الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- بل في كلام الرسول -صلى الله عليه وسلم-: ((يصبح الرجل مسلما، ويمسي كافرا))[٧]، تدل على أن الناس يتقلبون في أحوال، فهذا الإنسان المصلي لربما ينقلب في موقف إلى حال آخر إلى كفر أو إلى نوع نفاق، ولهذا تجد الصحابة في بعض المواقف بعضهم يقول: نافق فلان، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فالنفاق لا يختص بإظهار الإيمان وإبطان الكفر بالضرورة، هذه صورة تعتبر أجلى صور النفاق وأسوأ صور النفاق، ولكن هناك صور أخرى قد يكون هذا الإنسان مصليا ولكنه في الواقع فيه نوع نفاق يزيد وينقص، ولهذا يستشكل بعض الناس حال بعض هؤلاء الذي يقولون عن أنفسهم إنهم ليبراليين، وأنا أقول: منافقين، فبعضهم يقول: هؤلاء بعضهم يصلي نقول: وإن صلى، والنفاق أنواع فبعضهم يظهر الإسلام ويبطن الكفر حقيقة، زنادقة، يدل على هذا كتاباتهم بأسماء مستعارة في مواقعهم في بيوت الضرار المعروفة، يكتبون كتابات هي عين الكفر، كفر لا شبهة فيه سخرية من الله، ومن الرسول -صلى الله عليه وسلم-، ومن دين الإسلام صريحة، إذا كتبوا بأسماء مستعارة، قد حدثتني إحدى النساء من هؤلاء حصل عندها نوع اضطراب في موقف من المواقف، وشكت في حالهم فذكرت أموراً هي كفر صريح تذكر أنهم يتحدثون بها معها، فهذا إظهار للإسلام وإبطان للكفر، والبعض من هؤلاء قد لا يكون بهذه المنزلة من إظهار الإسلام وإبطان الكفر فيصلي ولكن عنده نوع نفاق، فهذه القضية لابد أن تدرك، فليس من شرط النفاق أن يظهر الإنسان الإسلام ويبطن الكفر، فالصحابة عندما يقولون: نافق فلان لا يقصدون أنه يظهر الإسلام ويبطن الكفر، فالنفاق أنواع، فهؤلاء لا شك في نفاقهم ولكن نفاقهم يتنوع، وإن كان بعضهم يصلي، هذه قضية لابد من تحريرها ومعرفتها، فكثير من القضايا المتعلقة بالنفاق لم تحرر عند كثير من طلبة العلم فضلا عن غيرهم، يعني حتى المشهور جداً عند العلماء وطلبة العلم أن النفاق لم يعرف إلا في المدينة، وبالتحديد بعد غزوة بدر، هذا كلام يحتاج إلى تحرير، في غزوة بدر ماذا قال الله -عز وجل-: {إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلاء دِينُهُمْ} [سورة الأنفال:٤٩]، ما نوع هذا المرض؟ النفاق وضعف الإيمان أليس كذلك؟، وفي بدر كان هناك منافقون {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} [سورة العنكبوت:١١] والسورة مكية، فمن الناس من يحصل له تلون، لا يقال: كون المسلمين في مكة ما عندهم قوه تُرهب حتى يحتاج الإنسان أن يظهر الإسلام، ويبطن الكفر، فالنفاق أحيانا يظهر في مواطن الضعف يكون عنده إيمان ولكنه ضعيف، فإذا جلس مع الكفار صار كحالهم، وإذا جلس مع أهل الإيمان صار كما قال الله -عز وجل-: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُواْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ اللّهُ وَمَن يُضْلِلِ اللّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً * وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ...} [سورة النساء:٨٨-٨٩]، وقال {سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوَاْ إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا} [سورة النساء:٩١] فهذا نوع نفاق.

{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا

---

٧ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، برقم (١١٨).

يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة الشعراء:٩٠-١٠٤].

{وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ} أي: **قربت الجنة وأدنيت من أهلها يوم القيامة مزخرفة مزينة لناظريها، وهم المتقون الذين رغبوا فيها على ما في الدنيا، وعملوا لها في الدنيا.**

أصل معنى {أُزْلِفَتِ} أدنيت وقربت، لكن قوله: **مزخرفة مزينة لناظريها** هذا يفهم من أمور أخرى، وليس معنى أزلفت، وإنما هو قدر زائد عليه.

{وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ} أي: **أظهرت وكُشف عنها، وبدت منها عُنقٌ، فزفرت زفرة بلغت منها القلوب إلى الحناجر.**

وقيل لأهلها تقريعا وتوبيخا: {أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ} أي: **ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله، من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئًا، ولا تدفع عن أنفسها؛ فإنكم وإياها اليوم حَصَبُ جهنم أنتم لها واردون.**

وقوله: {فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ} **قال مجاهد: يعني: فَدُهْوِرُوا فيها.**

وقال غيره: كببوا فيها. والكاف مكررة، كما يقال: صرصر، والمراد: أنه ألقي بعضهم على بعض، من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك.

اللفظة التي تتكرر فيها الحروف ككبكب وصلصل وزلزل وجلجل وحلحل تدل على تكرر في المعنى، فالزلزلة حركه فيها اضطراب، والحركة الواحدة ليس فيها اضطراب، وهكذا الصلصلة حينما تقول مثلاً صوت له صليل، أو له من صوت الجرس صلصلة، أو السلسلة أو نحو ذلك، إذا كان مرة واحدة فقط ما يقال له صلصلة، وهنا {فَكُبْكِبُوا} يعني ألقي بعضهم على بعض في دفعات تُلقى، كقوله: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ} [سورة الملك:٨] ويرمى فيهم في الجحيم ويطرح بعضهم على بعض، وبعضهم أيده وعبر عنه، ومعنى زائد وهو أن الكب يكون على الوجه يكب كبا، أي طرح بعضهم على بعض على وجوههم، كبكبوا.

{وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ} أي: **ألقوا فيها عن آخرهم.**

بعضهم يقول في قوله: {وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ} ذرية إبليس من الشياطين هم جنود إبليس، وجنود إبليس أعم من هذا {أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ} [سورة المجادلة:١٩] فحزب الشيطان هم جنود إبليس، فيدخل فيهم كل من كان بهذه الصفة من الجن والإنس؛ ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: {شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ} [سورة الأنعام:١١٢] كما أن الجن فيهم شياطين فالإنس فيهم شياطين، فجنود إبليس كل من كان داعية إلى عبادة غير الله -عز وجل-، وإلى طاعة الشيطان، ومروجاً لذلك، وساعياً فيه فهو من جنود إبليس، وكما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ} [سورة الإسراء:٦٤] وصّى بالغناء، وكل صوت يدعو إلى المنكر والباطل فهو داخل فيه، وقوله: {بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ} يعني كل راكب في المنكر والشر والصد عن سبيل

الله -عز وجل- فهو داخل في هذا بخليله، ورجلك كل ماشٍ وكل داعية إلى الإشراك، وإلى الكفر وإلى الفجور فهو من رَجِله، يعني الراجلة على الأرجل، هؤلاء كلهم من حزب الشيطان، ودعاته ومن جنوده.

{قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: يقول الضعفاء الذين استكبروا: {إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ} [سورة غافر:٤٧]، ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة: {تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: نجعل أمركم مطاعًا كما يطاع أمر رب العالمين، وعبدناكم مع رب العالمين.

بعضهم يقول: {تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}: "إن" مخففة من الثقيلة، وهذا مذهب البصريين {إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}، وبعضهم يقول بأنها نافية، وقوله: {إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ} [سورة فاطر:٢٣] يعني ما أنت إلا نذير، وبعضهم يقول بأنها نافية، وأن اللام لقوله: "لفي" بمعنى إلا، {إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} وهذا مذهب الكوفيين، وقوله: {إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} لم يسووهم بالله -عز وجل- من كل وجه، فهم يعرفون أن الله -تبارك وتعالى- هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت يقولون: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [سورة الزمر:٣]، لكن كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ} [سورة البقرة:١٦٥] سووا بينهم في المحبة والطاعة.

قال ابن القيم -رحمه الله- في قوله تعالى: {تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ}: "وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم: {تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه في الخلق والرزق والإماتة والإحياء والملك والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل، وهذا غاية الجهل والظلم، فكيف يسوي من خُلق من التراب برب الأرباب؟ وكيف يسوي العبيد بمالك الرقاب؟ وكيف يسوي الفقير بالذات، الضعيف بالذات، العاجز بالذات، المحتاج بالذات الذي ليس له من ذاته إلا العدم بالغنيّ بالذات، القادر بالذات، الذي غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته؟!"[٨].

{وَمَا أَضَلَّنَا إِلا الْمُجْرِمُونَ} أي: ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون.

{فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ} قال بعضهم: يعني من الملائكة، كما يقولون: {فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ} [سورة الأعراف:٥٣]، وكذا قالوا: {فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ} أي: قريب.

أصل مادة حميم تدل على القرب، وعبارة أهل العلم فيها من اللغويين وغيرهم تتفاوت، ولكنها تدور على هذا المعنى: القرب الشديد، وبعضهم يقول: قيل له ذلك ووصف بهذا لأنه يحمى لصاحبه، يقول الحمية، فإذا أوذي صاحبه أو قيل فيه ما يسوء أو نحو ذلك فإنه يحمى، يعني تأخذه الحمية يغضب له، ولا حاجة لمثل هذا التكلف -والله تعالى أعلم-، فالصديق الحميم أي: القريب جداً، علاقة حميمة يعني تحمى إلى صاحبها، يعني إذاً تغضب؟ لا، وإنما قريبة جداً.

---

٨ - الجواب الكافي، ابن القيم (٩٢).

{فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} وذلك أنهم يتمنون أنهم يردُّون إلى دار الدنيا، ليعملوا بطاعة ربهم -فيما يزعمون- وهو -سبحانه وتعالى- يعلم أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نُهوا عنه وإنهم لكاذبون. وقد أخبر تعالى عن تخاصم أهل النار في سورة "ص"، ثم قال: {إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ} [سورة ص:٦٤].

ثم قال تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} أي: إن في محاجة إبراهيم لقومه وإقامته الحجج عليهم في التوحيد لآيةً ودلالة واضحة جلية على أنه لا إله إلا الله {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.

قوله هنا: {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} هناك لما ذكر قوم فرعون وما حصل لهم من الغرق قال: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً} وسبق الكلام على هذا المعنى وأن منهم من يقول: {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ} يعني قوم فرعون، باعتبار أنه وجد فيهم من آمن كآسيا، وليس المقصود أفراد الجيش الذين كانوا معه؛ لأنهم غرقوا، وأن بعضهم كسيبويه قال: إن ذلك يتوجه للمشركين الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، فإن ذلك لا يؤثر فيهم، يعني ما يذكر من القصص والأخبار وهذه المثُلات، وهنا {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} بعضهم يقول: قوم إبراهيم، وبعضهم يقول: أي المشركون، يعني المشركين الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً} يعني في محاجة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- لقومه في التوحيد، هذه المحاجة فيها آية، في المحاجة ليس في ما ذكر من مصير الكفار مثلاً، وإنما في المحاجة هذا كلام ابن كثير وهو أيضاً قول ابن جرير -رحمه الله-، والإشارة -قول ذلك- بمحاجة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- إقامة الحجج عليهم في التوحيد {لآيَةً} دلالة واضحة على أنه لا إله إلا الله.

{كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} [سورة الشعراء:١٠٥-١١٠].

هذا إخبار من الله -عز وجل- عن عبده ورسوله نوح -عليه السلام-، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد، بعثه الله ناهيًا عن ذلك، ومحذرًا من وَبيل عقابه، فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى، ونزّل الله تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل؛ ولهذا قال: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ}.

يعني أن من كذب رسولاً واحداً فكأنما كذب الجميع؛ لأنه لم يكن رسول قبل نوح -عليه الصلاة والسلام-، وأول نبي هو آدم -صلى الله عليه وسلم- ، وأول رسول هو نوح -عليه الصلاة والسلام- فقال: {كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ}، وإنما هو رسول واحد، قال الله: {لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ} [سورة البقرة:٢٨٥]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا} [سورة النساء:١٥٠-١٥١]، وكذلك في قوله بعده: {كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ} [سورة الشعراء:١٢٣] وقد كذبوا هوداً -عليه الصلاة والسلام- فقط.

{إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ} أي: ألا تخافون الله في عبادتكم غيره؟

{إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ} أي: إني رسول من الله إليكم، أمين فيما بعثني به، أبلغكم رسالة الله لا أزيد فيها ولا أنقص منها.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} أي: لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم، بل أدخر ثواب ذلك عند الله {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} فقد وضح لكم وبان صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني به وأتمنني عليه.

{قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ} [سورة الشعراء:١١١-١١٥].

يقولون: أنؤمن لك ونتبعك، ونتساوى في ذلك بهؤلاء الأراذل الذين اتبعوك وصدقوك، وهم أراذلنا؟.

يعني هنا قالوا: {أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ} والمقصود بهم الأسافل الوضعاء من الناس، ممن لا شأن لهم، ولا مرتبة، ولا غنى {وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا} [سورة هود:٢٧]، هكذا قالوا له -عليه الصلاة والسلام- وهكذا قال المكذبون لأنبيائهم، وهكذا قال المشركون للرسول -صلى الله عليه وسلم- وطلبوا منه إبعادهم وتنزهوا عن مجالستهم ومخالطتهم، اطْرُدْ عنا هؤلاء الأنجاس، وهكذا قوله: {وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ} [سورة هود:٣٠]، فكانوا يتهمونهم ويقولون: إنهم إنما جاءوا لمآرب أخرى طلبا للطعام أو المال، وليس هؤلاء بأهل للنظر والتفكير والإيمان، ومعرفة الحجج والبراهين والآيات، إنما يتبعونك من أجل شيء يأكلونه يسدون به جَوعتهم، ولهذا كان الجواب: {إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ}، {مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} [سورة الأنعام:٥٢]، {قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} لست مسئولا عن التنقير في نفوسهم وقلوبهم، وشق الصدور، وإنما نحكم بالظاهر، فهؤلاء آمنوا أذعنوا فيقبل ذلك منهم وحسابهم على الله، أما أن نقول بأن هؤلاء غير صادقين فإن ذلك ليس لنا، هذا هو المعنى والله تعالى أعلم، يتهمونهم لفقرهم، {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ} الأخوة هنا المقصود بها أخوة النسب، فإن ذلك يعبر عنه بهذا، فالأخوة تأتي بهذا الاعتبار، وتأتي بمعنى آخر وهو أنه من قومهم، وتأتي بمعنى أنهم يشتركون في بلد واحد، وتأتي بمعنى أعم من ذلك، وتأتي بمعنى الأخوة الإيمانية وهذه لا تكون إلا لأهل الإيمان، وليست مرادة هنا قطعا، كما قال الله -عز وجل-: {وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا} [سورة الأحزاب:١٨]، ويحتمل أن يكون المراد بالأخوة أخوة النسب، كما جاء في بعض الروايات -لو صحت، ولا تخلو من ضعف- أن رجلاً قال لأخيه من النسب: هلمّ إلينا في قصة الخندق، أو يكون ذلك من الأخوة في الدين، وأنهم يقولون للمنافقين: {هَلُمَّ إِلَيْنَا}، فيحتمل أن يكون من جهة أنهم في قبيلة واحدة الأوس مثلاً أو الخزرج، فيحتمل أن يكون ذلك باعتبار أنهم في بلد واحد، {يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا} [سورة الأحزاب:١٣]، لكن الأخوة المنتفية هي الأخوة في الدين بين المؤمنين والكافرين هو من قومهم، منهم، من نسبهم، يرجع إليهم، يرجعون إلى أب واحد، ولهذا استشكل بعض أهل العلم {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ} [سورة الشعراء:١٧٧] قالوا هنا: إنه ليس منهم، هكذا قال بعض أهل العلم والأقرب خلاف ذلك؛ لأن القران يفسر بعضه بعضا: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} [سورة الأعراف:٨٥]، {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ

بِالْأَحْقَافِ} [سورة الأحقاف:٢١] فهنا هم يرجعون إلى قبيلة واحدة، وتأتي بمعنى الصاحب، أو نحو ذلك {أَخَا عَادٍ} بمعنى صاحب عاد كما يقال: أخو كذا.

{وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}؟ أي: وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي، ولو كانوا على أي شيء كانوا عليه لا يلزمني التنقيب عنه والبحث والفحص، إنما عليَّ أن أقبل منهم تصديقهم إياي، وأَكِل سرائرهم إلى الله -عز وجل.

{إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ}، كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ليتابعوه، فأبى عليهم ذلك، وقال: {وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُبِينٌ} أي: إنما بعثت نذيرًا، فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني وكنت منه ، سواء كان شريفًا أو وضيعًا، أو جليلا أو حقيرًا.

{قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة الشعراء:١١٦-١٢٢].

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ليلا ونهارًا، وجهرًا وإسرارًا، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ، والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ} أي: لئن لم تنته عن دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح {لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ} أي: لنرجمنَّك، فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه.

قوله: {لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ} الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **أي لنرجمنك** في الأصل هل زاد على هذا؟ ما فيه زيادة الرجم هنا، ويحتمل أن يكون بالسب والشتم، ويحتمل أن يكون بالحجارة، وهذا المعنى يذكر أيضا في قول آزر لإبراهيم -عليه الصلاة والسلام- {لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا} [سورة مريم:٤٦]، فيه معنيان: فقيل: الرجم بالحجارة، وقيل: بالسب والشتم، وابن جرير -رحمه الله- هنا يقول: إن المراد هنا السب والشتم، {لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ}، لكن لماذا نستبعد أن يكون المراد الرجم بالحجارة؟، وهذان المعنيان يذكران في الاستعاذة حينما يقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، والرجيم فعيل يأتي بمعنى فاعل، ومفعول، بمعنى أنه راجم؛ لأنه يرجم الناس بالوساوس والخواطر السيئة والشُّبه، والمعنى الثاني الذي عليه عامة المفسرين أنه المرجوم، والشيطان الرجيم هو الذي قطعاً مرجوم أي يُرجم باللعن والسب والشتم، والرجم بالجمار: إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- رمى الشيطان بالحجارة، فلا يقال: الشيطان الرجيم يعني المرجوم بالحجارة؛ لأن إبراهيم -عليه السلام- رمى الجمار، لكن في قوله: {وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ} [سورة الملك:٥] هي النجوم، يرجمون بالشهب، أي الشيطان الرجيم الذي يرجم بالشهب، عندما تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم الأقرب أنه يفسر بالسب، وقد يقول قائل بأن ذلك جميعا حاصل، والشيطان لا يقصد به إبليس بعينه، وإنما جنس الشياطين {وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ} [سورة المؤمنون:٩٧] فلا يختص بإبليس.

فقال: {رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا...} الآية، كما قال في الآية الأخرى: {فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ...} إلى آخر الآية، وقال هاهنا: {فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ

الْبَاقِينَ}، والمشحون: هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين، أي: نجيناه ومن اتبعه كلهم، وأغرقنا مَن كذبه وخالف أمره كلهم، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.

اختلف العلماء في المراد بقوله: **{وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ}** فقيل: يعني قوم نوح، وقيل: المقصود الذين بعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم-، وابن جرير -رحمه الله- يحمل ذلك على الثاني، أي ما كان أكثرهم من المشركين.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشعراء من الآية ١٢٣ إلى ١٥٩

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد.

{كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُواْ الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [سورة الشعراء:١٢٣-١٣٥].

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود -عليه السلام- أنه دعا قومه عاداً، وكان قومه يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل قريباً من حضرموت، من جهة بلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح، كما قال في سورة الأعراف: {وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً} [سورة الأعراف:٦٩]، **وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق الدارّة، والأموال والجنات والأنهار، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه، فبعث الله هوداً إليهم، رجلاً منهم رسولاً وبشيراً ونذيراً، فدعاهم إلى الله وحده، وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته وبطشه، فقال لهم كما قال نوح لقومه، إلى أن قال:** {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ}.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد:

فقوله -رحمه الله-: **وكان قومه يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل قريباً من حضرموت،** المؤرخون يقولون: إن عاداً وثمود من قبائل العرب البائدة، عاد، والقول هنا يسكنون الأحقاف وهي جبال الرمل، ويعرف اليوم بالربع الخالي، وهذا يدل على أنها قديمة جداً، لكن بعض من يتكلم في هذه الأشياء من بعض أهل العلوم المتعلقة بالأرض من أن هذا حصل، نزوح الأتربة والرياح وما أشبه ذلك، هذا قديم، عاد جاءوا بعد قوم نوح فهم من أقدم الأمم، وإذا كانت هذه الرمال بهذه المثابة من ذلك العهد فالجبال من باب أولى، ومن تأمل في ما جاء في الكتاب والسنة وفي الأخبار أيضاً يجد أن كثيراً من المعالم التي على وجه الأرض باقية كما هي في الجملة.

فقال لهم كما قال نوح لقومه، إلى أن قال: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ} **اختلف المفسرون في الريع بما حاصله أنه المكان المرتفع عند جَوادّ الطرق المشهورة، يبنون هناك بنياناً محكماً هائلاً باهراً.**

قوله: **الريع بما حاصله أنه المكان المرتفع عند جوادّ الطرق المشهورة،** هذا الذي اختاره كبير المفسرين ابن جرير -رحمه الله-، بمعنى أنهم يبنون أبنية في مداخل المدينة لا حاصل ولا فائدة ولا طائل منها، كما تشاهد اليوم بنايات على أشكال وصور إما على صورة قلعة، وإما على صورة ما يشبه المئذنة أو ما يشبه المجمرة، أو غير ذلك، تبنى بالملايين، ولا فائدة منها، {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ} فهي على هذا التفسير

بنايات لا تسكن، ولا ينتفع بها، إنما هي زيادة في الترف وتضييع الأموال من غير فائدة، ولهذا قال: {أَتَبْنُونَ}.

ولهذا قال: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً} أي معْلماً بناء مشهوراً.

وهذا لا يخالف قول من قال: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً} أي بكل طريق، وهكذا قول من قال: {بِكُلِّ رِيعٍ} أي بكل جبل، وقول من قال: الفج بين الجبلين يقال له: {رِيعٍ}، وبعضهم يقول: الثنية الصغيرة يقال لها: {رِيعٍ}، وهنا الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **هو المكان المرتفع عند جوادّ الطرق المشهورة**، يعني أن ابن كثير جمع بين هذه الأقوال بهذه الطريقة، قول من قال: طريق بين جبلين، المكان المرتفع هو الطريق، {رِيعٍ} هو الطريق، تبنون بكل ريع أي مكان مرتفع عند جوادّ الطرق، فتكون عبارة ابن كثير هذه على اختصارها جامعة للأقوال التي ذكرها المفسرون هنا، وبهذا تعرف قدر هذا الكتاب.

{تَعْبَثُونَ} أي وإنما تفعلون ذلك عبثاً لا للاحتياج إليه، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة.

يحتمل أن يكون هذا العبث: مجرد البناء يعني بنايات لا يسكنها هؤلاء ولا غيرهم ممن يكون مثلاً من المسافرين، والمارة ونحو ذلك، وإنما تبنى لمجرد العبث واللهو، وإظهار القوة، وبعضهم يفسر قوله: {تَعْبَثُونَ} يعني تؤذون المارة، تُشرفون منها وتؤذون المارة، وبعضهم يقول: تأخذون العشور يعني المكوس، أن هذه على جوادّ الطرق فيبنون هذه الأبنية التي يحصلون من المارة بها المكوس والضرائب، {آيَةً تَعْبَثُونَ} وليس هذا هو المتبادر من معنى العبث إذا أطلق: أنه أخْذ المكوس -وأخذ المكوس حرام-، هذا والظاهر -والله تعالى أعلم- أن ما ذكر أولاً هو الأقرب في المعنى، هذا البناء إنما هو عبث تبنونه عابثين من غير حاجة، والبناء من غير حاجة هو لون من العبث.

ولهذا أنكر عليهم نبيهم -عليه السلام-، ذلك؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة؛ ولهذا قال: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} قال مجاهد: المصانع: البروج المشيدة، والبنيان المخلد.

يعني على هذا أن المصانع البروج المشيدة كالقصور العظيمة، يعني أنكم تبنون بناء من لا يخاف الموت ولا يرجوه، كأنه يبقى مخلداً في هذه الحياة الدنيا، على هذا التفسير، قال مجاهد: **المصانع: البروج المشيدة**، وبعضهم يقول: الحصون المشيدة، وبعضهم فسرها بما هو معروف فيما يذكر بكتب الفقه، يقول: كمصانع طريق مكة، كما في زاد المستقنع في المياه من كتاب الطهارة، والمقصود بالمصانع في كلام الفقهاء وهي لا زالت موجودة في بعض البلاد التي يعيش أهلها بنفس الطريقة التي كان يعيش الناس فيها قبل ألف سنة، وقد رأيت هذا في بلاد لا يوجد فيها كهرباء ولا سيارات ولا شيء كأن الناس قبل ألف سنة، أو ألفين، أو ثلاثة آلاف سنة تماماً، ينتقلون على الدواب إذا وجدوها، ويصنعون حفرةً كبيرة في الأرض خزانَ ماء ضخماً، يمكن أن يكون عشرين متراً في عشرين مثلاً، وهو عميق نحو عشرة أمتار، ويضعون في جوانبها من الأسمنت ونحو هذا، ثم يضعون ما حوله وفوقه إن كان مسقوفاً، ومداخل للماء في موضع تأتي الأمطار والسيول فيه، فإذا جاء المطر دخل، واجتمع، فيبقى يجتمع فيه سائر العام، ثم بعد ذلك يستخرجون منه الماء،

خزان استخرجوا منه الماء كلما احتاجوا، يعني هو ليس بئراً وإنما خزان مياه من البحر، فهذه يجتمع فيها مياه كثيرة، ويدخلها ما يدخلها مع المطر من أوراق الشجر والحشرات وأشياء كثيرة جداً في داخلها، فهذه يقال لها: مصانع، فهنا بعضهم يقول: إن المصانع المقصود بها مصانع المياه {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ}، وهذا قال به الزجاج، لكن هل اتخاذ المصانع -هذه الحياض أو البرك- للمياه وهم بحاجة إليها تقوم عليها حياة الإنسان والحيوان، وهذا لا يكون من الترف، ومن التوسع في أفراد المعيشة وألوانها، وإنما من الضرورات، وليس ذلك من المياه التي لربما نحن لا يمكن أن نشربها؛ لأنها غير نقية، وإنما توضع في الأماكن الجافة التي لا يستطيع أهلها الحصول على الماء، لا تأتيهم الأمطار، وليس فيها أنهار، وليس الماء قريباً منهم حتى يُستخرج من الآبار، فيخزن الماء هذه المدة الطويلة ويتغير ويأسن، وتنظيفها متعذر، فقول الزجاج: إنها مصانع المياه يبدو أنه فيه بعد هنا -والله تعالى أعلم-، والإمام عبد الرزاق الصنعاني يقول: هي عندنا في اليمن القصور العالية، {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ} وهذا مثل ما ذكر ابن كثير -رحمه الله- **المصانع: البروج المشيدة والبنيان المخلد**، والبرج هو الشيء المشرف المرتفع من البناء، يقال له: برج بظهوره وانكشافه للناظرين، فبعضهم يقول: هو للحصون المشيدة، وبعضهم يقول: القصور، وهنا قال: {لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} واتخاذ الحصون أمر معروف في التاريخ منذ القدم، والناس بحاجة إليها من أجل الدفاع عن البلاد والحريم، فهل مثل هذا -يعني وضع الحصون- يعد توسعاً في المعيشة لاسيما في أوقات الخوف وما أشبه ذلك؟، الذي يبدو -والله تعالى أعلم- أن ذلك ليس بعيب، ولهذا فإنّ حمْله -والله تعالى أعلم- على التوسع في البناء في القصور هذا الذي يعاب قال: {لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} أي: كأنكم تخلدون، وإنما يكون كما هو هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- وكما جاء عنه قولاً، قال: ((مالي وللدنيا، إنما أنا والدنيا كمثل راكب استظل في ظل شجرة))[1]، والأحاديث في هذا الباب معروفة ومشهورة، وكانت بيوته -صلى الله عليه وسلم- كما جاء عن بعض من شاهدها من التابعين، الواقف يمس السقف بيده، من جريد، فهي إنما تكفي الإنسان في حياته هذه القصيرة، مدة يتمتع بها ثم بعد ذلك يفارقها، فإذا بنى الإنسان البناء الفخم المشيد العظيم الذي لا يصلح لمثل هذه الحياة القصيرة، فهذا من التوسع والترف المذموم، وهؤلاء كانوا بهذه المثابة {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ} يعني: القصور العالية، فهذا مذموم -والله تعالى أعلم-، وابن جرير -رحمه الله- جوز هذه الاحتمالات، أن يكون المقصود بها الحصون أو أن المقصود بها القصور أو غير ذلك مما ذكر، يعني أن الله لم يخص شيئاً من هذه المعاني، وكله يقال له: مصانع، لكن قطعاً لا يصح أن تحمل نصوص القرآن على معنى أو اصطلاح حادث أو صار مشهوراً في مثل هذا العصر، أو في عصر بعد عصر المخاطبين في القرآن، والمراد بـــ المخاطبين في القرآن: يعني الآن إذا أطلق لفظ مصانع فالمتبادر محل الصناعة، وليس ذلك بالمراد، اتخاذ المصانع وبناء المصانع أمر مطلوب، ولابد منه، ولا ينكره أحد، فليس لأحدٍ أن يقول {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ}: إن هوداً -عليه الصلاة والسلام- عاب على قومه اتخاذ المصانع، وينبغي أن يعيش الناس حياة بدائية بسيطة، وهذا ليس

---

١ - رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (١١٨٩٨)، وابن حبان في صحيحه برقم (٦٣٥٢)، وهو في السلسلة الصحيحة برقم (٤٣٨).

بمراد إطلاقاً، نصوص القرآن لا تُحمل على اصطلاح حادث، لكن الذي قد يقال معه: إن الأقرب هو ما ذكر أنها القصور، والقرينة قوله: {لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} أي: كأنكم تخلدون، و"لعل" في القرآن تأتي بمعنى التعليل في جميع المواضع إلا في موضع واحد، وهو هذا الموضع يعني {لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} أي كأنكم تخلدون، هذا الموضع الوحيد، وإن كان من أهل العلم من حمل لعل في القرآن على معنى الترجي، على وجهها، وهذا المحمل غير مستبعد لكنه يحتاج إلى تخريج وتوضيح في بعض المواضع، {فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [سورة طه:٤٤] إذا قلنا: إنها للترجي فهل يقع الترجي من الله؟، إنما يكون الترجي لمن لا يعلم عواقب الأمور، والله يعلم غيب السموات والأرض، وبيده مقاليد الأمور، فلا يقع الترجي منه، لكن تحتاج إلى تخريج وتوجيه فيقال: إنه على رجائكما، وإن الخطاب هنا روعي فيه حال المخاطب فهو يترجى فجاء الخطاب خارجاً على ذلك، -والله أعلم-.

ومعنى قوله: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ} أي: لكي تقيموا فيها أبدًا، وذلك ليس بحاصل لكم، بل زائل عنكم، كما زال عمن كان قبلكم.

وهذا كأنه يوضح أن ابن كثير -رحمه الله- يميل إلى أنها القصور التي يقيمون فيها، وفيها قراءة ليست متواترة، وهذا يؤيد ما ذكرت من التفسير من أن "لعل" هنا بمعنى "كأن"؛ لأن لعل لو حملت على الترجي، فإن اتخاذ القصور بناء القصور لا ترجِّيَ معه للخلود، يعني الذي يبني القصر، فهو يعرف أنه سيفارق، وإذا حُملت على التعليل فهذا أوضح وأشد، يعني هل يقال: تتخذون مصانع من أجل أن تخلدوا؟ هل اتخاذ القصور يكون علة للخلود؟ كأن تسابق الناس على ذلك من أجل تحصيل الخلود، فمعنى لعل أي كأنكم تخلدون.

مصانع لكي تقيموا فيها أبداً، وذلك ليس بحاصل لكم: العبارة يبدو لي -والله أعلم- أن فيها إشكالاً، فكانوا لا يبنون القصور لكي يقيموا فيها أبدا، فهم يعلمون أنهم سيموتون ويفارقونها، فاعتبار لعل هنا للتعليل بعيد -والله تعالى أعلم- غاية البعد، بل الذي أظنه -والله تعالى أعلم- أن هذا لا يمكن أن يصح؛ لأنهم لا يدّعون هذا، ولا يدّعي أحد أصلاً أنه يبني القصور من أجل البقاء الأبدي السرمدي، ما يعتقدون هذا ولا يقولونه ولا يرجونه.

وقوله: {وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ} وصفهم بالقوة والغلظة والجبروت.

البطش: يعني هنا يصفهم بالقوة، والبطش هو السطوة في الأخذ، يأخذ بسطوة إذا سطا، إذا أخذ، فإذا أخذ فأخذُه شديد.

{فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} أي: اعبدوا ربكم، وأطيعوا رسولكم.

ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال: {وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ. وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} أي: إن كذبتم وخالفتم، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب، فما نفع فيهم.

{قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة الشعراء:١٣٦-١٤٠].

يقول تعالى مخبرًا عن جواب قوم هود له، بعدما حذرهم وأنذرهم، وَرَغَّبَهُم ورهبهم، وبيَّن لهم الحق ووضحه: {قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ} أي: لا نرجع عما نحن فيه، {وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} [سورة هود:٥٣]، وهكذا الأمر؛ فإن الله تعالى قال: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ} [سورة البقرة:٦]، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة يونس:٩٦-٩٧].

وقولهم: {إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ}: قرأ بعضهم: "إن هذا إلا خَلْق" بفتح الخاء وتسكين اللام.

وهي قراءة متواترة مشهورة قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو والكسائي، وقرأ الباقون كما نقرأ (خُلُق) {إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ}.

قال ابن مسعود، والعوفي عن عبد الله بن عباس، وعلقمة، ومجاهد: يعنون ما هذا الذي جئتنا به إلا أخلاق الأولين، كما قال المشركون من قريش: {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا} [سورة الفرقان:٥]، وقال: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [سورة الفرقان:٤-٥]، وقال: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} [سورة النحل:٢٤].

هذا تفسير لقوله: {إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ} العبارة التي نقلها عن جماعة من السلف -رضي الله تعالى عنهم-، قال: إلا أخلاق الأولين، ويقصدون بالأخلاق الفضائل، وما يتحلون به من الأوصاف الكريمة أو غير الكريمة، فيقصدون بقولهم: {إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ} ما الذي تأتينا به إلا أخلاق الأولين، مع أن الآيات التي أوردها ابن كثير -رحمه الله- هنا مما يوضح هذا المعنى من قول المكذبين للرسل -عليهم الصلاة والسلام- {أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} بمعنى أخلاق الأولين، يعني الأكاذيب، أشياء لا حقيقة لها، {أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} يعني من مختلقاتهم، والأمور التي لا تثبت ولا أساس لها ولا مستند {قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ} فهؤلاء الذين نقل عنهم الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هذا مرادهم، إنما المقصود الأكاذيب والأخلاق: أي المفتريات والأكاذيب، وليس المقصود الخُلق، وما يتحلى به الإنسان من الفضائل أو الرذائل، هذا معنى القراءة الأولى، {إِنْ هَذَا إِلا خَلْقُ الأَوَّلِينَ}، وعلى هذا يكون هذا الكلام موجهاً منهم لنبيهم هود -عليه الصلاة والسلام-، أي هذا الذي جئت به مختلق مفترى في جملة أكاذيب الأولين وأساطيرهم، كأنهم قالوا له: هذا أساطير الأولين كما قيل للرسول -صلى الله عليه وسلم- هذا على قراءة "خَلْق الأولين".

وقرأ آخرون: {إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأَوَّلِينَ} -بضم الخاء واللام- يعنون: دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد، ونحن تابعون لهم، سالكون وراءهم، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد؛ ولهذا قالوا: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ}.

على هذه القراءة الثانية {إِنْ هَذَا إِلا...} إن هنا نافية ما هذا إلا خُلُق الأولين أي: عادتهم ومذهبهم ودينهم، وعلى هذا تكون الإشارة بقوله: "هذا" ترجع إلى ما هم عليه، الأول: يكون ذلك يراد به ما جاء به نبيهم -عليه الصلاة والسلام-، يكذبونه ويردونه ويقولون: هذا الذي جئت به هو من مختلقات السابقين وأساطيرهم، والقراءة الأخرى: {خُلُقُ الأَوَّلِينَ} يقولون: ما نحن عليه هو دين الآباء والأجداد، وبعض أهل

العلم يقول: إنهم قصدوا بذلك -وهذا لا ينافي ما الذي كانوا عليه-: إن هذا يعني الأشياء التي أنكرتها علينا من اتخاذ القصور، والبناء في كل ريع عبثاً وما شابه ذلك مما ذكره وعابه عليهم، قالوا: هذا الذي أدركنا عليه الناس، وهذا لا ينافي قول من يقول: إن هذا أي ما نحن عليه هو عادة الأولين، ودأب الأولين، خُلُق الأولين دين الأولين، فهذا كله يرجع إلى شيء واحد، ما الذي كانوا عليه؟ هي الأشياء التي عابها عليهم من عبادة غير الله -عز وجل-، والبناء إلى آخره، وكأنهم يقولون له: عبتنا بشيء أدركنا عليه الناس، ما عهدنا غير هذا، وهذه الأشياء التي تأتي بها هي أمور مختلقة، فكل قراءة لها معنى، وإذا كانت القراءتان كل واحدة لها معنى فهي بمنزلة الآيتين، وهذا لكون القرآن يعبر به بالألفاظ القليلة الدالة على المعاني الكثيرة، والحكمة من وجود الأحرف التي نزل بها القرآن على الأحرف السبعة التسهيل والتيسير هذا هو الأصل، لكن توجد حِكم تابعة أيضاً فمنها الإعجاز في المعاني، والألفاظ، وهذا القرآن الذي عجزوا عن الإتيان بمثله وتحداهم الله -عز وجل- أن يأتوا بسورة، يصرفه الله -تبارك وتعالى- هذا التصريف بهذه الحروف التي يركبون منها الكلام، ومع ذلك هم في غاية العجز على أن يأتوا بوجه واحد يضاهيه، وهكذا كثرة ما يتضمنه من المعاني من جراء هذا التصريف، فإذا جمعنا معاني القراءات هنا كأنهم قالوا له: هذا الذي جئت به مختلق، وما نحن عليه عادة الأولين، ودين الأولين، ومسلكهم، رأيتم كيف تكون بلاغة القرآن وسعة معانيه وكثرتها.

وفي قوله عنهم: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} يعني أنهم كانوا يشركون، ما كانوا ينكرون وجود الله -تبارك وتعالى- بالكلية، وما كانوا ينكرون هذا كله، فهنا قال عنهم: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} هل معنى ذلك إنكار أن الله يعذب أحداً أصلاً؟، فهنا يمكن أن يفسر ويقال: إنهم قالوا ذلك باعتبار أن ما فعلوه ليس بعيب ولا مذموم، وأن هذه السنة المتبعة عند الآباء والأجداد التي أدركوا عليها الناس، فهم يقولون: عبتنا بشيء لا يُلحق بنا تبعة، ما نحن بمعذبين على هذا! {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} فهم لم يقصدوا إنكار التعذيب أصلاً لأحد من المخلوقين، وما كانوا ملاحدة ينكرون بمعنى الإلحاد المعروف في العصر الحديث، وإنما كانوا يقولون: نحن لم نفعل شيئاً خطأ، هذه الأشياء التي جئت فيها، وهذا أمر عجيب بعد قوم نوح ما زال الناس -وعذاب يأخذ أهل الأرض جميعاً- في التغرير هلكوا عن آخرهم إلا من آمن مع نوح في السفينة، ومع ذلك يقع هذا الشرك والكفر والعناد، ويقولون: هذا الذي أدركنا عليه الآباء، وهذا يعني أنه قد تنوسي الإيمان والتوحيد، ودين نبي الله نوح -عليه الصلاة والسلام-، فكلما سكت أتباع الرسل عن الحق وبيانه وإظهاره للناس كلما كان ذلك سبباً لخفائه واضمحلاله، بقاء الناس في جهالة وعماية، فيظهر الباطل ويعلو، ويبقى الناس مثل حال الجاهلية، وهذه الأمة ليس فيها أنبياء بعد النبي -صلى الله عليه وسلم-، فواجب على أتباع الرسول -عليه الصلاة والسلام- أن يقوموا بما يجب، وإلا فإن سنة الله -تبارك وتعالى- جارية، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر أن الإيمان يأرِز إلى ما بين المسجدين كما تأرِز الحية إلى جحرها[٢]، تضيق الدائرة حتى يبقى في مساحة ضيقة ما بين

---

٢ - رواه البخاري من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-، كتاب فضائل المدينة، باب الإيمان يأرز إلى المدينة، برقم (١٧٧٧)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، برقم (١٤٧).

المسجدين، تأرز، كما تجتمع الحية إلى جحرها فهذه غربة شديدة لابد من رفعها وهجرها، فأهل الباطل يرفعون غربتهم المذمومة بالدعاء إلى باطلهم، ونشره وبالذب عنه والغضب له، وأهل الحق أولى بهذا.

قال ابن جرير -رحمه الله تعالى-: "وقوله: {إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأوَّلِينَ} اختلفت القرّاء في قراءة ذلك; فقرأته عامة قرّاء المدينة سوى أبي جعفر، وعامة قرّاء الكوفة المتأخرين منهم: {إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأوَّلِينَ} من قبلنا، وقرأ ذلك أبو جعفر، وأبو عمرو بن العلاء: {إِنْ هَذَا إِلا خَلْقُ الأوّلِينَ} بفتح الخاء وتسكين اللام بمعنى: ما هذا الذي جئتنا به إلا كذب الأوّلين وأحاديثهم.

واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، نحو اختلاف القرَّاء في قراءته، فقال بعضهم: معناه: ما هذا إلا دين الأوّلين وعادتهم وأخلاقهم"[٣].

يوجد في كتب التفسير قول من يقول: هذا مختلقات الأولين، وآخر يقول: هذا دين الأولين وعادتهم، وهنا تحمل كل قراءة، كل معنى يحمل على قراءة، لكن أحياناً بعض المفسرين قد لا يذكر القراءات، أو يذكر المعاني متتابعة من غير تفصيل، هذا يرجع إلى قراءة، وهذا يرجع إلى قراءة فيُظن أن هذا من قبيل الاختلاف، وليس كذلك، وإنما كل تفسير يرجع إلى قراءة.

وقال الإمام ابن جرير الطبري -رحمه الله-: "وأولى القراءتين في ذلك بالصواب: قراءة من قرأ {إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأوَّلِينَ} بضم الخاء واللام، بمعنى: إن هذا إلا عادة الأوّلين ودينهم، كما قال ابن عباس، لأنهم إنما عوتبوا على البنيان الذي كانوا يتخذونه، وبطشهم بالناس بطش الجبابرة، وقلة شكرهم ربهم فيما أنعم عليهم، فأجابوا نبيّهم بأنهم يفعلون ما يفعلون من ذلك، احتذاءً منهم سنةَ من قبلهم من الأمم، واقتفاء منهم آثارهم، فقالوا: ما هذا الذي نفعله إلا خُلق الأوّلين، يعنون بالخلق: عادة الأوّلين، ويزيد ذلك بيانا وتصحيحا لما اخترنا من القراءة والتأويل، قولهم: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} لأنهم لو كانوا لا يقرُّون بأن لهم ربا يقدر على تعذيبهم، ما قالوا: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} بل كانوا يقولون: إن هذا الذي جئتنا به يا هود إلا خلق الأوّلين، وما لنا من معذِّب يعذبنا، ولكنهم كانوا مقرين بالصانع، ويعبدون الآلهة، على نحو ما كان مشركو العرب يعبدونها، ويقولون: إنها تقربنا إلى الله زلفى، فلذلك قالوا لهود وهم منكرون نبوته: {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ} ثم قالوا له: ما هذا الذي نفعله إلا عادة من قبلنا وأخلاقهم، وما الله معذبنا عليه، كما أخبرنا تعالى ذكره عن الأمم الخالية قبلنا أنهم كانوا يقولون لرسلهم: {إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ}"[٤].

هذا يقوله ابن جرير -رحمه الله- من أجل ما ذكر في ترجيح إحدى القراءتين على الأخرى قراءة {إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأوَّلِينَ} يعني دين الأولين وعادة الأولين، قال: لأنهم قالوا: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} هذا الذي عليه الناس ما جئنا بشيء خطأ، لكن إذا ثبتت القراءة فهذا كله قرآن، وكلام الله -عز جل-، فهذه يكون لها معنى، وهذه يكون لها معنى، تكون كل قراءة بمنزلة آية مستقلة، لكن لا بأس للعالم أو القارئ أو نحو ذلك أن

---

٣ - جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري(١٩/٣٧٧).

٤ - جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري(١٩/٣٧٨-٣٧٩).

يختار، كما هي الطريقة المعروفة عند الأئمة، فإنهم رووا القراءات، واختاروا منها، فنسب هذا الاختيار إليهم فقيل: قراءة فلان وقراءة فلان، وهذا الاختيار بناء على اعتبارات معينة منها ما يتصل بالمعنى، مثل هنا هذا الذي اختار هذه القراءة {إِنْ هَذَا إِلا خُلُقُ الأوَّلِينَ} هو لابد أن يقرأ، ولا يصح أن يجمع بين القراءات، إلا في مقام التلقين أو تعليم القراءات، أما الجمع بين القراءات في التلاوة فلا يذكر في اللفظة الواحدة الوجهين، ويجمع بين القراءات في المتفرق فيما لا يبنى بعضه على بعض، والذي يختار من القراء: اختار "إن هذا إلا خُلُق الأولين" أي دين الأولين، اختار هذه القراءة باعتبار أنه قال بعده عنهم: {وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ} فهذا أحد الأسباب التي تحمل القارئ على اختيار أحد الأوجه على غيره، وأحياناً يقرأ مراعياً لحال من يُقرئه، أن هذه قراءة أهل بلده مثلاً، وهناك اعتبارات معينة، لكن هذا واحد منها، هذا مثال تطبيقي.

قال الله تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ} أي: فاستمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده، فأهلكهم الله، وقد بيَّن سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحًا صرصرًا عاتية، أي: ريحًا شديدة الهبوب ذات برد شديد جدًا، فكان إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة، كما قال: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} [سورة الفجر:٦-٧] وهم عاد الأولى، كما قال: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الأُولَى} [سورة النجم:٥٠]، وهم من نسل إرم بن سام بن نوح.

مع أن الهوى هذا هو أرق شيء وأخفه وألطفه يعني هنا يقول: سلط الله عليهم شيئاً من جنسهم باعتبار أنها عاتية، {بِرِيحٍ صَرْصَرٍ} [سورة الحاقة:٦] لها صوت، تحمل الحجارة تسمع ضرب الحجارة من شدة تحصبهم بها، {بِرِيحٍ صَرْصَرٍ} قوية لا يقف أمامها شيء، وهذا قد لا يتصور أحياناً، لكن الله يرينا بين حين وآخر قوته وبأسه في هذه الأشياء اللطيفة، كيف تتحول إلى أشياء هائلة مدمرة، ترون الأعاصير لما تُنقل الآن، فهناك أعاصير تدمر مدناً كاملة، وتحمل المراكب البرية والبحرية وتلقيها بعيداً، وفيها مساكن الناس، ومقتنياتهم وما أشبه ذلك مثل القش، والمياه تزيل البنيان القوي، بحيث تجعل له قاعاً صفصفاً لا يقف أمامها شيء، تحمل السيارات الكبار والصغار كأنها قش يسبح فوقها، وهنا هذه الريح لطيفة وأهلك الله بها هؤلاء المتجبرين، فقوة الله -عز وجل- تظهر للناس بهذه الأمور وغيرها، والله المستعان.

{ذَاتِ الْعِمَادِ} أي: الذين كانوا يسكنون العُمُد.

قال: **يسكنون العُمُد**، يقال: العُمُد بضمتين، وابن كثير -رحمه الله- يقصد بقوله: **يسكنون العمُد** يعني الخيام، يقال: فلان رفيع العماد كثير الرماد، ويميل إلى أن قوله -تبارك وتعالى-: {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} أن إرم ليست مدينة وأنها قبيلة، ذات العماد، كانوا يسكنون الخيام على قول ابن كثير هذا، الخيام هي التي يكون لها عُمُد، هي التي يعبر عنها بهذا وإلا فحتى الدور لها عماد الآن، لكن هي التي يعبر بها عن هذا، يسكنون العمد، بمعنى أنهم لا يسكنون القصور مثلاً، أبنية من الحجارة، أو المدر، وهذا يحتاج إلى تحرير -والله تعالى أعلم-، هل كانوا يسكنون الخيام فعلاً؟، المنطقة التي هم فيها صحراء، لكن هذا لا يمنع أن يوجد فيها مدينة أو مدن لكونهم بهذه القوة، والبطش والجبروت، وما ذكر الله -عز وجل- عنهم مما متعهم الله -تبارك وتعالى- به، قال سبحانه: {أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} فالذين يسكنون الخيام

المعروف عنهم أنهم يكونون أهل رعي وبهائم وأنعام، ولكن "جنات وعيون" هذه تكون لأهل القرى، يعني العمران سواء كانت صغيرة أو كبيره أهل الحواضر، ولهذا لما قال أصحاب موسى -عليه الصلاة والسلام- قوم موسى لما كانوا في التيه وأنزل الله عليهم المن والسلوى، وطلبوا من موسى -صلى الله عليه وسلم- أن يدعو ربهم ليخرج لهم مما تنبت الأرض من ثومها وعدسها بصلها، قال لهم: {أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً} [سورة البقرة:٦١] يعني مصراً من الأمصار بلداً من البلدان في قرية من القرى؛ لأن هذه الزروع توجد في القرى، والحواضر، لا توجد في البادية، الثوم والبصل والعدس.... إلى آخره، {اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ} ما أردتم المن والسلوى هذا الذي يأتي من غير كلفة، ادخلوا مصراً من الأمصار، اسكنوا قرية من القرى تجدوا فيها هذه البغية الرخيصة، فهنا "جنات وعيون"، والخيام تكون في البوادي؛ ولهذا يقال: أهل الوبر والمدر، فأهل المدر أهل القرى الحواضر والبنيان، وأهل الوبر هم أهل البوادي فهذا الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله- هو لم ينفرد به، لكن يحتاج هذا المقام إلى تحرير وتأمل، وكثير من المؤرخين والمفسرين -لكنها روايات إسرائيلية- يذكرون مدينة بنيت بناء عجيباً يفوق الوصف، بل ذُكر أنها بنيت من الذهب والفضة وما أشبه ذلك، وقد يكون هذا فيه بعض المبالغات، واليوم يزعم من يتكلمون على الحفريات والآثار، ولربما يأخذون بعض قولهم من أصحاب الإعجاز العلمي، يقولون: إنه وجدت مدينة في الربع الخالي وإن هذه {إِرَمَ} وإنهم وجدوا أن هذه الأماكن كانت جنات وأنهاراً، يقولون: زاحت الرمال، وجاءت الرمال لهذه المنطقة، وهذه الرمال كانت موجودة يعني هي جبال الرمل، أحقاف، فكانت هي منازلهم، والله تعالى أعلم، لكن يقولون: إن هذه المنطقة كانت عبارة عن جنات وأنهار، وإن البعثات التي جاءت ودرست أحوال المنطقة ونحو ذلك وجدوا ما يدل على ذلك فيها، ثم يربطون بين هذا وبين قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((لا تقوم الساعة حتى تعود جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً))[٥]، ولفظة العود تارة تطلق على رجوع الشيء إلى ما كان عليه، وتارة تطلق ويراد بها تصير، عاد الطين خزفاً، وعاد الغلام شيخاً.

ومن زعم أن "إرم" مدينة، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب، وليس لذلك أصل أصيل، ولهذا قال: {الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ} [سورة الفجر:٨]، أي: لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال: التي لم يُبن مثلها في البلاد.

وهذا ليس بضروري أي كونه ما قال: التي لم يُبن مثلها في البلاد، وإنما قال: "لم يخلق"، والخلق بمعنى الإيجاد، يأتي بمعنى الإيجاد، ويأتي بمعنى التقدير يعني سواء كان الإيجاد من العدم، أو كان دون ذلك، يعني الله -عز وجل- يقول: {وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي} [سورة المائدة:١١٠]، وهكذا أيضاً فيه شواهد أخرى تدل على هذا المعنى، فلفظة الخلق لا تعني الإيجاد من العدم دائماً، وأضاف الخلق إلى عيسى -عليه الصلاة والسلام-، وهنا تجد ما يذكر من المنهيات اللفظيات قول: فكرة خلاقة، خلْق الأفكار هذا بمعنى إيجاد الأفكار وكذا، يعني هذه اللفظة ليست محرمة، وأن ذلك يمكن أن

---

٥ - رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها، برقم (١٠١٣).

ينسب إلى المخلوق لكن بمعنى يصلح له، وذكرت في بعض المناسبات -بعد صلاة العشاء- كثيراً من الألفاظ هذه التي يقال: إنها منهية، مناهٍ ونحو ذلك: أنها تحتاج إلى تحرير، وليست على إطلاقها، إن قصد بها كذا فهي كذا، وإن قصد بها كذا فهي كذا، والأحسن أن الإنسان يبتعد عن الألفاظ الموهمة أو التي قد يستوحش منها السامع، ويسبق إلى ذهنه معنى غير مراد، ولكن كلام ابن كثير -رحمه الله- هنا لا يلزم: أي ما قال: **لم يُبن مثلها في البلاد**، وقال: "لم يُخلق".

وقال: {فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ} [سورة فصلت:١٥].

وقال تعالى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ...} **إلى قوله**: {حُسُومًا} [سورة الحاقة:٦-٧]، **أي: كاملة** {فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ} [سورة الحاقة: ٧]، **أي: بقوا أبدانًا بلا رءوس؛ وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه وترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه، وتكسر رأسه، وتلقيه، كأنهم أعجاز نخل منقعر، وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يُغن عنهم ذلك من أمر الله شيئا**، {إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لا يُؤَخَّرُ} [سورة نوح:٤]؛ **ولهذا قال**: {فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ...} **الآية**.

وكونهم تحصنوا وحفروا إلى آخره، هذا مأخوذ من الإسرائيليات، لكن قوله -تبارك وتعالى-: {كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ} أجسامهم ضخمة إذا ماتوا، والآن الناس مثلنا إذا رأيت بعض الصور وهم ميتون مثل القش والحطام والبيوت، كأنهم سمك السردين، الناس اليوم ضعفاء، وأحياناً تحتاج أن تنظر الخشبة هذه صغيرة أو رجل، لكن أولائك كانوا في منتهى الضخامة {أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ}، أصول النخل، ومن عرف النخل تصور ضخامة هذه الأجساد وعظمها.

{كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الشعراء:١٤١-١٤٥].

وهذا إخبار من الله -عز وجل-، عن عبده ورسوله صالح -عليه السلام- أنه بعثه إلى قوم ثمود، وكانوا عربًا يسكنون مدينة الحِجْر، التي بين وادي القُرَى وبلاد الشام، ومساكنهم معروفة مشهورة، وقد قدمنا في "سورة الأعراف" الأحاديث المروية في مرور رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بهم حين أراد غزوَ الشام، فوصل إلى تَبُوك، ثم عاد إلى المدينة ليتأهب لذلك، وقد كانوا بعد عاد وقبل الخليل -عليه السلام-، فدعاهم نبيهم صالح إلى الله -عز وجل- أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه، وأخبرهم أنه لا يبتغي بدعوتهم أجرا منهم، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله -عز وجل-، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال: {أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ} [سورة الشعراء:١٤٦-١٥٢]

يقول لهم واعظًا لهم ومحذرًا إياهم نقم الله أن تحل بهم، ومذكرًا بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارّة، وجعلهم في أمن من المحذورات، وأنبت لهم من الجنات، وأنبع لهم من العيون الجاريات، وأخرج

لهم من الزروع والثمرات؛ ولهذا قال: {وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ}، قال العوفي، عن ابن عباس: أينَعَ وبَلَغ، فهو هضيم.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: {وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ} يقول: مُعشِبة.

وقال إسماعيل بن أبي خالد، عن عمرو بن أبي عمرو -وقد أدرك الصحابة- عن ابن عباس، في قوله: {وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ} قال: إذا رَطُب واسترخى، رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: ورُوي عن أبي صالح نحو هذا.

{وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ} بمعنى نضيج لين طري صالح للأكل مهيأ، رخص لطيف، معاني طلعها هضيم إذا طاب جناه واسترخى، وصار مهيأ للأكل قيل له ذلك: {طَلْعُهَا هَضِيمٌ} وقد ذكر فيه الماوردي اثني عشر قولاً.

قال ابن جرير -رحمه الله تعالى-: "القول في تأويل قوله تعالى: {أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ...} الآيات، يقول تعالى ذكره مخبرا عن قيلِ صالح لقومه من ثمود: أيترككم يا قوم ربُّكم في هذه الدنيا آمنين، لا تخافون شيئا؟. {فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ} يقول: في بساتين وعيون ماء. {وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ} يعني بالطلع: الكُفُرَّى.

واختلف أهل التأويل في معنى قوله: {هَضِيمٌ} فقال بعضهم: معناه اليانع النضيج.

وقال آخرون: بل هو المتهشم المتفتت.

وقال آخرون: هو الرطب اللين.

وقال آخرون: هو الراكب بعضه بعضا.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: الهضيم: هو المتكسر من لينه ورطوبته، وذلك من قولهم: هضم فلان حقه: إذا انتقصه وتَحيَّفه، فكذلك الهضم في الطلع، إنما هو التنقص منه من رطوبته ولينه إما بمسّ الأيدي، وإما بركوب بعضه بعضا، وأصله مفعول صرف إلى فعيل"[٦].

هضيم، مهضوم: منقوص، وقد يتبادر إلى أذهان الناس اليوم أنه مهضوم أي سريع الهضم، ويمكن أن يقال: هذا من لازمه إذا كان رخصاً رخواً ليناً فإن ذلك من شأنه أن يسهل أكله، والانتفاع به، من باب اللازم، تفسير باللازم، والله تعالى أعلم.

وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: وقوله: {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} قال ابن عباس، وغير واحد: يعني: حاذقين، وفي رواية عنه: شرِهين أشِرين، وهو اختيار مجاهد وجماعة، ولا منافاة بينهما؛ فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشَرًا وبطرًا وعبثًا، من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم؛ ولهذا قال: {فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ} أي: أقبلوا على عَمَل ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتوحدوه وتعبدوه وتسبحوه بكرة وأصيلا.

---

٦ - جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (١٩/٣٨٠-٣٨١).

هذه يقول: {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} فيها قراءتان متواترتان، القراءة الأولى {فَرِهين} وهذه قرأ بها بعض السبعة كنافع وأبي عمرو وابن كثير، والفَرَه بمعنى الفرح الشديد الذي يختل معه سلوك الإنسان، وتوازنه فيحصل له شيء من الخفة من شدة السرور والفرح فتكثر حركته وعبثه وكلامه فيما يصلح وما لا يصلح، والكلام على قراءة "فرهين" فبعضهم يقول: إن هذه القراءة وقراءة "فرهين" بمعنى واحد، وبعضهم يقول: فرهين، الفَرَه بمعنى النشاط الزائد، وبعضهم يفسره بالبطَر والأشَر، وهذا كله على قراءة "فرهين" بطِرين أشِرين، وبعضهم يقول: الشرَه شرِهين، وبعضهم يقول: هذا بمعنى الإعجاب والتنعم معجبين آمنين ناعمين فرحين، هذا الفرَه وفسر الفاره بمعني الحاذق، حاذقين بالنحت، بنحتها، {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} أي: حاذقين بنحتها، وهذا شيء مشاهد فإنك إذا رأيت تلك البيوت -واجهات تلك البيوت- فإنك تستكثر هذا على أهل هذا العصر الذين نظن أنهم وصلوا إلى حال من القوة والتمكين والآلات والصناعة، ومع ذلك يُستكثر ما يشاهد فيها عليهم سواء من جهة الارتفاع أو كيف يكون الجبل في واجة بهذه الملاسة كأنه قطعة رخام وعلى مر الأزمان -هذه القرون المتطاولة- بقيت هذه المعالم والنقوش بدقة، نقوش أحياناً صور طيور على الجبل منحوتة من الجبل، ورسومات أخرى على الواجهات، وزخارف بهذه الدقة، القوة هائلة، قدرة على النحت والتفنن فيه، ليست القضية مجرد أنه يأتي بآلة يخرق الجبل ثم بعد ذلك يكون غاراً أو نفقاً أو نحو ذلك، ثم إن هذه الأشياء التي يستعملها ليست خارجة منه كأن يأتي بأمور تزينه على الواجهات مستعارة، لا من نفس الجبل، النحت والزينة بغاية الدقة والإحكام، والحسن سواء كان في اختيار مواضعها أو في دقة تصميمها، فالإنسان مجرد رسمه على ورقة قد لا يحسنه فكيف إذا جاء لتطبيق ذلك على أصعب الأشياء وأصلب الأشياء التي هي الحجارة الصخور جبل لا ينقله؟ يعني ليست حجراً بين يديه يتصرف فيه ويقلبه، فعلى هذا الارتفاع الشاهق هذا أمر! ولذلك هذه الحالة الموصوفة التي وصفها الله -تبارك وتعالى-، ما وصف من حال عاد وأنهم كانوا في غاية الجبروت والقوة حتى إنهم أعجبوا بأنفسهم غاية الإعجاب، "من أشد منا قوة" ومثل هذا الإعجاب والجبروت الذي وصفهم الله -تبارك وتعالى- به ليس هذا مجرد طول الأجساد وضخامتها، وإنما لما اجتمع لهم من أسباب القوة، فهذه كانت مزيّة {وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً} [سورة الأعراف:٦٩] كانت مزيّة من المزايا، لكن اجتمعت لهم أسباب القوة ما جعلهم بهذا الجبروت والقوة حتى قالوا: {مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً} [سورة فصلت:١٥]، والله -تبارك وتعالى- وهو العظيم الأعظم القوي يصفهم بهذه الأوصاف من القوة والتمكين وما أشبه ذلك، وهكذا ثمود، وديارهم شاهدة، قيل: الآن يأتي إليها من يأتي يتعجبون من قدرة هؤلاء وما بقي من آثار الأمم في بلاد في أطراف الشام، في مصر وغير ذلك، كل هذا يدل على أمم ممكنة قوية، أشد قوة مما الناس عليه اليوم، انظر إلى آثار الناس اليوم ومبانيهم، وانظر إلى آثار الأولين كيف بقيت على هذه القرون؟! وإذا سئل من له خبرة وممارسة في المقاولات عن العمر الافتراضي للبنيان في زماننا هذا فسيقول: ثلاثون سنة هذا العمر الافتراضي، إلا إذا جيء بمواد من أماكن أخرى ممكن أن تزيد في العمر الافتراضي بينما هؤلاء آلاف السنين، ولازالت هذه الآثار سواء من الجبال أو من غيرها الآثار الموجودة من الأهرام أو في بلاد الأردن لا زالت بعض الآثار، وفي أماكن أخرى كسور الصين، فهذه تدل على قوة هائلة الناس يتضاءلون أمامها، فأولائك الناس لم يكونوا بسطاء من البدائيين، لا

يستطيع الواحد منهم إلا أن يغطي سوءته بأوراق الشجر، كما يصور بعض من يكتب في التاريخ زوراً وكذباً، ويقول: العصر الحجري والعصر البرونزي هذا كله كذب، والله -عز وجل- أخرج آدم وعلمه الأسماء كلها، وأهبطه إلى الأرض منتهى التحضر والعلم، وأسجد له الملائكة، فأين هذا الإنسان البدائي الذي يصورون كأنه في غابة في جزيرة من جزر إندونيسيا النائية، أو مجاهيل أفريقيا، آدم ما كان بهذه المثابة، وهذه الأمم التي يصفها ونرى آثارهم، ثم يصور الإنسان على أنه مر بهذه، وهذا جزء من نظرية التطور الذي لا يفهمه أو لا يدركه أو لا يتفطن له كثير من أبناء المسلمين، ونظرية التطور ما تختص بأن الإنسان قرد ثم بعد ذلك تطور حتى صار إنساناً، بل هي أوسع من هذا، فتمتد إلى جوانب أخرى من حياة الإنسان، والحضارة وما أشبه ذلك يقولون مثلاً: في العبادة والدين كان الناس مثلاً أمام خوف أمام المجهول يخافون من الظلام يخافون من الوحوش، يخافون من كذا ثم بعد ذلك عرفوا السحر والشعوذة؛ من أجل أن يتوصلوا إلى ما عجزوا عنه، ويدفعوا عن أنفسهم بهذه الأمور، فشاع السحر وانتشر وصار هو دين الناس، ثم توصلوا إلى شيء قالوا: هو الله من أجل أن يُشعروا أنفسهم بأنهم يلجئون إلى قوة خفية تمدهم بالعون، ثم يقولون: نحن وصلنا إلى درجة من التمكين والسيطرة على كوكب الأرض، ولسنا بحاجة إلى ذلك، هكذا يزعمون، هذه كلها أطراف لنظرية التطور فما يوجد شيء اسمه عصر برونزي، ولا يوجد شيء اسمه عصر الإنسان البدائي، وعصر الإنسان الحجري، هذا كله كذب، والمشكلة أن هذه أسماء من لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا يعرف شيئاً من أمور الوحي، ما يعرفون هذا الكلام **{إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}** [سورة الفجر:٧-٨]، وما ذكر الله -عز وجل- عن ثمود وغيرهم، ما يعرفون هذا الكلام إطلاقاً، **{وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا}** [سورة البقرة:٣١]، فيقولون: خرج الإنسان بدائياً ما يعرف شيئاً، ثم بدأ يأخذ أوراق الشجر ويستر سوءته، ثم بدأ يتخذ من الشجر وكذا أشياء قوساً يرمي به الطريدة ويصليها على حجر، وقوله: **{وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا}** بعضهم يزعم أن هذه البيوت قبور، ويحاول أن يستدل على ذلك بأن البيت يأتي في كلام العرب بمعنى القبر، وهذا الكلام وإن جاء في لغة العرب لكنه معنى غير مشهور، ولا يجوز حمل ألفاظ القرآن على معانٍ خفية غير مشهورة من غير موجب، وبعضهم حمل هذا على أنها كانت قبور بناء على كلام بعض الغربيين الذين يقولون: كانت هذه قبوراً، لكن ليس كذلك، الله يقول: "بيوتاً" والبيت معروف، والله -تبارك وتعالى- قال: **{تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا}** [سورة الأعراف:٧٤] فالسهول خارج الوادي الحجر، السهول خارجه كانوا يبنون القصور، وهذا الوادي ينحتون فيه الجبال، بعض أهل العلم يقول: كانوا في الصيف يخرجون إلى السهول والقصور التي يبنونها فيها، وفي الشتاء يسكنون في هذا الوادي، وإن وُجد في بعضها الآن قبور لكن ليست هي قبور لهم، هذه تتابع عليها الناس منذ أزمان متطاولة والأمم حولها، ويُفني الله -عز وجل- أمماً وينشئ آخرين، فإذاً وُجد من دفن البوادي إلى الآن، وبعضهم يدفن أمواتهم في مغارة أو كهف ويضع عليه الحجارة، وإلى الآن جبال الجنوب يوجد فيها من هذا، والبادية عرف عنهم ذلك من قديم؛ لجهلهم أو لقلة إمكاناتهم، أو لصعوبة الأرض عندهم، أو لشحهم فيها، أحياناً أرض صغيرة يزرعها، فيضع الميت في هذا الغار، ويضع عليه أحجاراً، وإذا جاء ميت آخر أُدخل في هذا الغار ووُضع عليه أحجار وهكذا بلا دفن، فكون أن هؤلاء يوجد منهم من يستغل هذه الأماكن المنحوتة

في الجبال ويدفن فيها ميتاً أو نحو ذلك ليس بمستغرب، فلا يعني أن هذه هي، ولذلك فإن بعض من شاهدها، أنا لم أذهب إلى الحِجر، وليس للإنسان أن يقصده إلا إذا كان شاكاً أو متردداً، فالله أمر بالسير في الأرض والضرب فيها لينظر الإنسان كيف كان عاقبة الذين من قبل هذا الأمر، فالنظر إنما كان لمن كان عندهم تردد، ما كان لكل الناس، ما جاء في القرآن من الأمر في السير في الأرض والنظر في عاقبة المكذبين هذا للناس الذين عندهم شيء من التردد، أما الإنسان الموقن فهو لا يؤمر بالذهاب إلى أماكن المعذبين، وإذا مر بها أسرعَ، كما فعل النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكما فعل علي -رضي الله عنه- حينما مر بأرض الخسف من بابل، بل ذكر بعض أهل العلم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما أتى وادي مُحسِّر أسرع قالوا: لأنه الموضع الذي أهلك فيه الفيل، وإن كان هذا لا يثبت، أعني أن هذا المكان الذي أهلك فيه الفيل بين مزدلفة ومنى، لكن يكفي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما مر بالحِجر أسرع حين عاد من تبوك ونهاهم عن دخوله إلا أن يكونوا باكين أو متباكين، فالمقصود أن الذين رأوا هذه القبور يقولون: إنها بحجم قبورنا، لكن أولائك كانوا أطول أجساداً منا فكيف تكون بمقدار قبورنا؟! فهذا يدل على أنها قبور متأخرة، ثم هؤلاء الذين أهلكهم الله عن بكرة أبيهم بهذه الريح الصرصر العاتية من الذي جاء ليحترم تلك الذوات، ويضعها في هذه الأماكن ويقبرها؟! فهذا لا يبنى عليه معنى كهذا وهو أن يقال: هذه البيوت هي عبارة عن قبور، إنما هي بيوت، ويقول بعض من شاهدها: إنه يوجد فيها أماكن أوسع، ومنحوت على أطراف الجدار مثل المقعد ممتد للجلوس، يعني مثل الكنب لكن منحوت من الحجارة، وهذا لا يعني أنهم كانوا يجلسون على الحَجر، فإذا استطاعوا نحت هذه فمعنى ذلك أن عندهم من الأثاث ما يزينون به هذه الأماكن، لكن هذا يدل على أنها ليست قبوراً، ويكفي قول الله -عز وجل-: {وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} -والله أعلم-، حتى الأهرام القول إنها مقابر وكذا، قد لا يكون دقيقاً، فهي ليست مجرد قبور، بل فيها مقتنيات وأشياء لهم.

وقوله: {وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ} **يعني: رؤساءهم وكبراءهم، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر، ومخالفة الحق.**

يقول: {وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ} فسرها هنا بقوله: {الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ} والله -تبارك وتعالى- ذكر في موضع آخر قوله: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ} [سورة النمل:٤٨]، ولهذا ابن جرير -رحمه الله- حمله على هذا المعنى {وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ} هم الذين قص الله خبرهم، {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ} فيقول: لا تطيعوا هؤلاء، والمفسرون والمؤرخون يذكرون أخباراً كثيرة جداً في هذا، ويذكرون أسماء، وأسماء لبعض النساء، ومن تسبب وباشر قتل الناقة، ودواعيَ ذلك، والنبي -صلى الله عليه وسلم- أخبر عن أحيمر ثمود الذي عقر الناقة.

{قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة الشعراء:١٥٣-١٥٩].

يقول تعالى مخبرا عن ثمود في جوابهم لنبيهم صالح -عليه السلام-، حين دعاهم إلى عبادة ربهم: {قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ}، قال مجاهد، وقتادة: يعنون من المسحورين.

ثم قالوا: {مَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا} يعني: فكيف أوحي إليك دوننا؟ كما قالوا في الآية الأخرى: {أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الأشِرُ} [سورة القمر:٢٥-٢٦].

الآن {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} نقل هنا عن بعض السلف في قوله: {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} يعني من المسحورين، وهو قول مجاهد وقتادة، لكن المعنى الثاني يعني المخلوق، ووجه ذلك: {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} أي: لك سحر، وهو الرئة، يُقال: انتفخ سحره، الرئة، يقولون: {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} يعني ممن له سحر يعني رئة، والذي يكون له رئة معنى ذلك أنه بشر! وهو ما أنكر أنه بشر، وهم يعتقدون أو يزعمون أن النبي لا يكون من البشر، لابد أن يكون ملَكاً، {أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً} [سورة الإسراء:٩٤]، هذا لا يمكن عندهم، فيقولون له: {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} يعني لك سحر فأنت إذاً بشر! يعني أنت ممن يتعلل بالطعام والشراب مثلنا، أنت بشر تأكل وتشرب لك سحر مثلنا، فإذاً أنت لست برسول! وهذا المعنى هو الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله- {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} يعني لك سحر، ونتيجة المآل يعني أنهم يقولون: أنت بشر، ولكن هذا من قبيل اللازم يعني حينما يقال قوله: {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} أي أنت مخلوق، أو أنت إنسان، أو أنت بشر، فالمعنى المطابق يعني لك سحر، يريدون من هذا ويلزم من ذلك أن تكون بشراً، فمن تفسيره بلازمه، ولا بأس بالتفسير باللازم لكن لابد أن تفهم وجه هذا التفسير، فهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، وقد يكون المتبادر الأول يعني أنهم رموه بالسحر {إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا} [سورة الفرقان:٨].

ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها، ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم فطلبوا منه -وقد اجتمع ملؤهم- أن يُخرج لهم الآن من هذه الصخرة -وأشاروا إلى صخرة عندهم- ناقة عُشَراء من صفتها كذا وكذا. الناقة العُشراء هي التي مضى لها عشرة أشهر في الحمل، فهي قريبة الولادة.

وقوله: **وأشاروا إلى صخرة عندهم ناقة عُشَراء من صفتها كذا وكذا** يعني أنهم طلبوا ناقة بمواصفات معينة أن تكون عشراء يعني لها عشرة أشهر حامل كَوْماء وبراء، فخرجت لهم ناقة.

فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق، لئن أجابهم إلى ما سألوا لَيُؤمنُنّ به، وليصدقنه، وليتبعنه، فأعطوه ذلك، فقام نبي الله صالح -عليه السلام-، فصلى، ثم دعا الله -عز وجل-، أن يجيبهم إلى سؤالهم، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا إليها عن ناقة عُشَراء، على الصفة التي وصفوها، فآمن بعضهم، وكفر أكثرهم.

يعني يوجد من قوم صالح -عليه الصلاة والسلام- من آمن، ويوجد في بعض كتب التاريخ أسماء لبعض أهل الإيمان منهم، والمحاورات التي حصلت بينهم وبين المكذبين الكافرين، وبعض من تردد منهم وكاد يؤمن وما جرى له من صرف عن الإيمان، وما حصل من كيد إلى آخره، وإن كانت تلك الأخبار لا يمكن أن نجزم بصحة التفاصيل الواردة فيها، لكن كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((حدثوا عن بني إسرائيل ولا

حرج))[٧]، فيذكرون تفاصيل فيهم، ومجاوبات بينهم وبين قومهم، وأسماء جملة من المؤمنين بصالح -عليه الصلاة والسلام- فما كذّبوا جميعاً.

{قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} يعني: ترِد ماءكم يوما، ويوما تردونه أنتم.

الشِرب هو الحظ من الماء، فلها حظ ولكم حظ، الماء قسمة بينهم يوم للناقة، ويوم لهم يسقون أنعامهم ودوابهم، وفي كتب التواريخ يذكرون بعض الدوافع لقتل الناقة لو صح ذلك، امرأة لها نَعم كثير من الغنم فكانت تتأذى بالناقة؛ لأن دوابها لا تشرب من الماء في اليوم الآخر، وأن الناقة لما كانت بهذه المثابة من الضخامة إذ كانت تفزع منها الأغنام وتتفرق عليها وتفر وتجفل فتأذت بها فأغرت بعض الأشقياء، وكان عندها بنات في غاية الجمال فوعدت بالتزويج من هؤلاء البنات هكذا يزعمون -والله تعالى أعلم-، لكن الذي ذكره الله -تبارك وتعالى- هنا أنه جعل الماء قسمة بينهم كل شرب يُحضّر على غير صاحبه، فيوم للناقة ويوم لهم ويوم لدوابهم، وكانت الناقة فيها من اللبن ما يكفي لهم يشربون منها في ذلك اليوم.

{وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ} فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء، فمكثت الناقة بين أظهرهم حينًا من الدهر ترد الماء، وتأكل الورق والمرعى، وينتفعون بلبنها، يحتلبون منها ما يكفيهم شربًا وريًا، فلما طال عليهم الأمد وحضر شقاؤهم، تمالئوا على قتلها وعقرها، {فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ}.

{فَعَقَرُوهَا} والآية الأخرى دلت على أن هناك عملاً قبل العقر قال: **{فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ}** [سورة القمر:٢٩] هو أحيمر ثمود، وتأتي تسميته في كتب التواريخ، وكذا يقولون: قدار بن سالف، هم عرب كانوا، **{فَتَعَاطَى فَعَقَرَ}** قام بأعمال قبل العقر، والمؤرخون يذكرون أن رجلاً كمن لها بأصل صخرة، والآخر رماها، وذاك قطع عرقوبها فسقطت، والثاني نحرها، فالتعاطي يدل على عمل، وقوله: **{فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ}** أصبحوا نادمين يذكر المؤرخون أن صالحاً -عليه الصلاة والسلام- كما قال الله -تبارك وتعالى- وعدهم ثلاثة أيام: **{تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ}** [سورة هود:٦٥]، وأنه وضع لهم علامة في ذلك أن في اليوم الأول تكون ألوانهم كذا، واليوم الثاني تكون وجوههم كذا، واليوم الثالث تكون وجوههم كذا، فلما بدأت هذه العلامات في اليوم الأول ندموا وعرفوا صدق ما وعدهم به، ولكن لات ساعة مندم، والفاء في قوله: **{فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ}** تدل على التعقيب المباشر، وتعقيب كل شيء ومباشرته بحسبه، يعني لا يلزم أنه بمجرد العقر حصل الندم مباشرة، لكن **{فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ}** في الصباح فجاءت الدلائل والأمارات في هذه الأيام الثلاثة على حلول نقمة الله -عز وجل- بهم.

وهو أن أرضهم زُلزلت زلزالا شديدًا، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب عن محالها، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.

---

٧ - رواه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم (٣٢٧٤).

الأشياء التي يخبر الله -عز وجل- فيها عن عقوبة أمة من الأمم تارة يذكر أنه أخذتهم الصيحة، وتارة يذكر أنه أخذتهم الرجفة، فالعلماء يجمعون بين هذا فيقولون: صاح بهم الملك صيحة شديدة انخلعت لها القلوب ورجفت بهم الأرض فهلكوا، فتارة يذكر هذا وتارة يذكر هذا، -والله أعلم-.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشعراء من الآية ١٦٠ إلى ١٩٢

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد.

قال المصنف -رحمه الله-: {كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الشعراء:١٦٠-١٦٤].

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله لوط، -عليه السلام-، وهو: لوط بن هاران بن آزر بن آزار، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم -عليهما السلام-، وكانوا يسكنون "سدوم" وأعمالها التي أهلكها الله بها، وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة، وهي مشهورة ببلاد الغور بناحية متاخمة لجبال البيت المقدس، بينها وبين بلاد الكَرَك والشَّوبَك، فدعاهم إلى الله -عز وجل- أن يعبدوه وحده لا شريك له، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله إليهم، ونهاهم عن معصية الله، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم، مما لم يسبقهم الخلائق إلى فعله، من إتيان الذكْران دون الإناث.

قوله -تبارك وتعالى-: **{كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ}** هم كذبوا لوطاً -عليه الصلاة والسلام- فعد ذلك تكذيباً لجميع الأنبياء -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، ومن كذب واحداً فهو مكذب بجميع الرسل، **{لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ}** [سورة البقرة:٢٨٥]، **{إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ}**، لوط -عليه الصلاة والسلام- هو الوحيد في القرآن حينما ذكرت دعوته لم يذكر معها في جميع المواضع أنه دعاهم إلى التوحيد، والرسل -عليهم الصلاة والسلام- كانوا يقولون لأقوامهم -أول ما يدعونهم إليه-: **{اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ}** [سورة الأعراف:٥٩] ولوط -صلى الله عليه وسلم- أنكر عليهم إتيان الفاحشة، وذهب بعض أهل العلم إلى أن قوم لوط -عليه الصلاة والسلام- لم يكن عندهم إشراك، وإنما كانوا بهذا المثابة من العمل القبيح -والله تعالى أعلم-، وكون التوحيد لم يذكر الأمر به لا يعني أنهم لم يكونوا على الإشراك، ولا يعني أنه لم يخاطبهم بذلك، والخطاب في القرآن منقول من لغة أخرى، أعني خطاب هؤلاء الأنبياء من غير العرب -عليهم الصلاة والسلام- فيذكر الله -تبارك وتعالى- في كل موطن ما يناسبه؛ ولذلك تجد ما يذكره الله من خبر موسى -صلى الله عليه وسلم- في كل مقام ما يناسب ذلك المقام، وهناك أشياء لا يذكرها ببعض المقامات ويذكرها في مقام آخر، وهكذا في كلام شعيب مع قومه، وفي كلام صالح، وفي كلام هود -عليهم الصلاة والسلام- مع أقوامهم تجد أن الخطاب فيه أشياء تذكر في موضع، وأشياء لا تذكر في موضع، حتى الصيغة المنقولة يعني امرأة إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- قالت للملائكة: **{عَجُوزٌ عَقِيمٌ}** [سورة الذاريات:٢٩]، وفي الموضع الآخر قالت: **{يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ**

هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ} [سورة هود:٧٢]، وهو مقام واحد، موقف واحد ما تكرر حتى نقول: في المرة الأولى قالت كذا، وفي المرة الثانية قالت كذا، والسبب -والله تعالى أعلم- هو ما ذكرتُ من أن الكلام منقول بمعناه، والترجمة -كما هو معروف- ليست حرفية، وإنما تكون بنقل المعنى، فينقل من المعنى لكل مقام ما يناسبه، حتى في اللغة الواحدة لمّا تحكي موقفاً، تنقل موقفاً أو نحو ذلك تذكر من الموقف أشياء تناسب المقام، وكون لوط -صلى الله عليه وسلم- ما ذكر أنه خاطبهم بالتوحيد لا يعني أنه لم يأمرهم به؛ فالتوحيد هو أول ما يدعو إليه الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، لكن لما كانت هذه الفعلة القبيحة هي من مبتكراتهم ولم يسبقهم إليها أحد، ربما يكون هذا هو السبب في أن لوطاً -صلى الله عليه وسلم- ذكر الله عنه أنه قال لهم: **{أَتَأْتُونَ}**، يعني ذُكرتْ هذه في دعوتهم وإلا فهم كفار قبل ذلك وبعده؛ ولهذا أهلكهم الله -عز وجل- بهذا الهلاك المستأصل، وهل هذا الهلاك المستأصل لمجرد أنهم فعلوا هذه الفعلة؟، هم كفرة ووقعوا بهذا الفعل القبيح ومن أين جاءهم الإيمان أصلاً؟ يعني لوط -عليه الصلاة والسلام- كان في تلك الناحية قريباً من الأرض المقدسة، من بيت المقدس، يقولون: ذلك المكان هو ما يعرف الآن بالبحر الميت، وإبراهيم -صلى الله عليه وسلم- كان في الشام حينما هاجر إليها، ودعا الناس إلى عبادة الله -جل جلاله-، فبقي لوط -عليه الصلاة والسلام- وهو ابن أخيه في ناحية، وإبراهيم في ناحية، هؤلاء جاءهم الإيمان قبل لوط -عليه الصلاة والسلام-، فالمقصود أن كون الدعوة إلى الإيمان والتوحيد لم تذكر لا يعني أنه لم يدعهم إلى ذلك أو أنهم كانوا على الإيمان ولا يظن بقوم أنهم على الإيمان، ويأتيهم نبي رسول ثم يجيبونه بمثل هذا الجواب، ويتوعدونه بالطرد والإخراج، ويعيبونه أنه يتنزه عن فعلتهم، يقول: **بينها وبين بلاد الكَرَك والشَّوبَك**، هي في تلك الناحية لأن الله -عز وجل- قال: **{وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا}** [سورة الفرقان:٤٠]، فدل ذلك على أن أهل مكة مروا على تلك الناحية حينما أتوا بلاد الشام، يقول: **بلاد الكرك والشوبك**، وهو يعني بها منطقة البحر الميت، فهو دعاهم إلى الإيمان فكذبوا بلوط -عليه الصلاة والسلام-، ومن كذب بنبي فهو مكذب بجميع الأنبياء، ولو قالوا: إنهم مصدقون ومؤمنون بهم، فتقول مثلاً: اليهود مكذبون الرسل مع أنهم يؤمنون بموسى -صلى الله عليه وسلم- وأنبيائهم، فقد يقول قائل: إن قوله: **{كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ}** يعني كذبوا لوطاً، هذا كفر منهم، لكن كان ذلك الكفر واقعاً حينما كذبوه، لكن هل كانوا على الإشراك حينما دعاهم إلى الله؟ هذا هو السؤال وإلا فتكذيب لوط -عليه الصلاة والسلام- هو كفر لا شك.

وقال الحموي -رحمه الله تعالى-: الكَرَك بفتح أوله وثانيه، وكاف أخرى: كلمة عجمية اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس، وهي على سن جبل عالٍ تحيط بها أودية إلا من جهة الربض، قال: والكرك أيضاً قرية كبيرة قرب بعلبك.ا.هـ.

هي الأولى يقصد جبال الأردن فالبحيرة البحر الميت. **{وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ}** [سورة الفرقان:٤٠] قال: **{وَالْمُؤْتَفِكَةَ}** [سورة النجم:٥٣] لأنه قلبها ووصل وذكرها بالصفة، قال: **{وَالْمُؤْتَفِكَاتُ}** [سورة الحاقة:٩] باعتبار أن لها أعمال يعني قرى توابع فكلها قلبت، هي والتوابع والقرى التي معها.

ولهذا قال تعالى: {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ{ [سورة الشعراء:١٦٥-١٧٥].

لما نهاهم نبي الله عن إتيانهم الفواحش، وغشيانهم الذكور، وأرشدهم إلى إتيان نسائهم -اللاتي خلقهن الله لهم- ما كان جواب قومه له إلا أن قالوا: {لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ} **يعنون: عما جئتنا به،** {لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ} **أي: ننفيك من بين أظهرنا، كما قال تعالى:** {وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [سورة الأعراف:٨٢]، **فلما رأى أنَّهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالتهم، تبرأ منهم فقال:** {إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ} **أي: المُبغضين، لا أحبه ولا أرضى به؛ فأنا بريء منكم. ثم دعا الله عليهم قال:** {رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ}.

قال الله تعالى: {فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ} **أي: كلهم،** {إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ}، **وهي امرأته.**

هنا يقول: {إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ} أي المبغضين، {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} [سورة الضحى:٣]، قال: **لا أحبه ولا أرضى به، فأنا بريء منكم، ثم دعا الله عليهم فقال:** {رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ} الآن ظاهر الدعاء الذي دعا به أنه دعا ربه طلب النجاة، من ماذا؟ مما يعملون، بمعنى أنه يسلم مما وقعوا فيه من هذا الرجس، وأن الله يسلم أهله من ذلك، هذا ظاهر الدعاء، الحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: **ثم دعا الله عليهم فقال:** {رَبِّ نَجِّنِي}، فنوجه كلام ابن كثير -رحمه الله- بأنه طلب النجاة لنفسه مما يعملون، هذه الإجابة التي حصلت له أن الله -تبارك وتعالى- قال: {فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} فدل ذلك على أنه دعا عليهم، حينما طلب النجاة دعا عليهم، وطلب الإهلاك لهؤلاء، وأن الله يأخذ هؤلاء المجرمين، قال: {فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ} فالفاء تدل على التعقيب المباشر، وتعقيب كل شيء بحسبه، أي لا يعني أنه وقع بنفس اللحظة التي دعا بها، وإنما وقع لهم ذلك في الصباح، وأيضاً تدل الفاء هذه على التعليل، وأيضاً تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها {فَنَجَّيْنَاهُ}، نجيناه باعتبار إجابة الدعاء الذي تقدم منه {فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} يقول هنا: {فِي الْغَابِرِينَ} يقول وهي امرأته، وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع من بقي من قومها، هذه العبارة التي عبر بها ابن كثير -رحمه الله- دقيقة جداً بقيت فهلكت، ولفظة الغابر كما يقول النحاس من الأضداد، تأتي بمعنى الباقي وتأتي بمعنى الذاهب، الباقي والذاهب {إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} إذا فسرتها في الباقين أو فسرتها في الذاهبين فإنها تدل على هذا وهذا، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- قال في قوله: {إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ}: **بقيت فهلكت،** جمعاً للمعنيين، هلكت بمعنى ذهبت في الذاهبين في الهلاك، والأول في الباقين بقيت، وهذا من دقته -رحمه الله- في هذا الكتاب، وكثيراً ما يمر الإنسان على أشياء من هذا القبيل ولا يتفطن لها، ولكن هذا الكتاب هو بمنزلةٍ في كتب التفسير، فالمقصود أن هذه اللفظة يمكن أن تفسر بمعنى أنها {إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} أي في الذاهبين في الهلاك، في الهالكين، أو يقال: {إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} يعني في الباقين في الهلاك، والنتيجة واحدة ذهبت، والهلاك

يقال فلان هلك، وفلان ذهب، فلان راح بمعنى هلك {فِي الْغَابِرِينَ} في الباقين في الهلاك، ومن أهل العلم من فسر البقاء بطول العيش، والمدة التي عاشها الإنسان؛ فهي كبيرة في السن، في الباقين يعني في المعمرين {إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ}، وهذا اختيار ابن جرير -رحمه الله- ويعبر عنه بعضهم -كأبي عبيدة- بعبارة قريبة {فِي الْغَابِرِينَ} يعني في الباقين في الهرم أنها بقيت ما ماتت في سن مبكرة مثلاً، عمّرت، وذكر أيضاً ابن جرير -رحمه الله- معنى آخر -لكن اختياره الأول- ذكر أن من أهل العلم من قال: {فِي الْغَابِرِينَ} يعني أنها بقيت بعد قومها لم يصبها العذاب الذي أصابهم معهم، وإنما أصابها خارجاً عنهم، بمعنى أنهم يقولون: إنها خرجت مع لوط -عليه الصلاة والسلام- قال: {وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ} [سورة هود:٨١] ثم استثناها، قالوا فأصابها بعدما خرجت، التفتت فأصابها عذاب قومه في قريتهم، وهي خرجت، بقيت بعدهم ثم وقع لها، ولكن هذا -والله تعالى أعلم- فيه نظر، فمن جهةٍ المفسرون لم يتفقوا على أنها خرجت مع لوط، والاستثناء في قوله: {وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ} اختلفوا هل هو منقطع أولا، بمعنى لكن امرأة يصيبها ما أصابهم، أو أنها خرجت معهم والتفتت، والأمر الثاني أنه لو قيل: إنها خرجت والتفتت، فلا يعني هذا أن العذاب وقع لهم ثم التفتت هي بعد ذلك بعدما هلكوا ثم هلكت ليس ذلك باللازم، فقد تكون التفتت فرأت القرى تنسف فماتت في نفس الوقت، والله تعالى أعلم، والأقرب -والله تعالى أعلم- أن {إِلا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ} تستطيع أن تقول يعني في الهالكين، وأصل المعنى في الذاهبين وفي الباقين كل ذلك يرجع إلى معنى واحد وهو الهلاك وهذا أقرب -والله تعالى أعلم- من تفسيره أنها بقيت بمعنى أنها عمّرت حتى صارت عجوزاً، فالحديث فيما يبدو ليس عن هذا، والله أعلم.

وكانت عجوز سوء بقيت فهلكت مع مَنْ بقي من قومها، وذلك كما أخبر الله تعالى عنهم في "سورة الأعراف" و"هود"، وكذا في "الحِجْر" حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته، وأنهم لا يلتفتون إذا سمعوا الصيحة حين تنزل على قومه، فصبروا لأمر الله واستمروا، وأنزل الله على أولئك العذاب الذي عمّ جميعهم، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود؛ ولهذا قال: {ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا...} إلى قوله: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}.

هنا لم يتكلم عن الآيات الأخرى؛ لأنه مضى الكلام عليها {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} أي في إهلاكهم، {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم} يعني هل المقصود قوم لوط وما كان أكثر قوم لوط بمؤمنين أو أن المقصود أهل مكة؟ المقصود أهل مكة، وأنهم حينما يسمعون مثل هذا لا يحصل لهم الاعتبار المطلوب، والاتعاظ، فلا ينفعهم ذلك {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم} قلنا: إن هذا هو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، {وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم} يعني أكثر قومك، وابن كثير في الموضع السابق ذكر أن المقصود الأقوام الذين أهلكهم الله -تبارك وتعالى-، ومثل هذا التكرار في هذه الآية {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ}، حينما تتكرر هو ليس بتكرار محض، وإنما كل موضع يختص بما قبله، {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً} لما جرى في قوم لوط، وهكذا في سائر المواضع، والأوضح من هذا الآيات التي في سورة الرحمن {فَبِأَيِّ آلَاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} كل واحدة تختص بما قبلها، وكذلك أيضاً في غيره، ولكن هذا من أجلاها وأوضحها، والله أعلم.

{كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الشعراء:١٧٦-١٨٠].

هؤلاء -أعني أصحاب الأيكة -هم أهل مدين على الصحيح.

قوله: {كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ} هذه قراءة الجمهور، والقراءة الأخرى المتواترة "ليكة" بحذف المعرِّفة، وهي قراءة نافع وابن عامر وابن كثير، والمعنى واحد على قول الجمهور، وعامة أهل العلم على أن "ليكة والأيكة" كلاهما واحد، ولكنها جاءت في موضع معرَّفة وفي موضع غير معرَّفة، وإن قال بعض أهل العلم خلاف ذلك، يعني مثلاً أبو عبيد -رحمه الله- يقول: ليكة يعني القرية، والأيكة هي الغيضة شجر ملتف، والظاهر أنهما واحد ليكة والأيكة، وأنه الشجر الملتف، أو كما يقول بعضهم: مُناعم الشجر الكثيف كالأراك والسدر ونحو هذا، فالمقصود أنها غيضة شجر كثير ملتف هذا قاله الخليل بن أحمد وغيره، {كَذَّبَ أَصْحَابُ الأيْكَةِ} قال: هم أهل مدين على الصحيح، فهذه ثلاثة أقوال ليست عند ابن كثير لكن هي متفرقة في الواقع؛ لأن بعضهم يقول: إن أهل مدين غير أصحاب الأيكة، وإن هؤلاء غير هؤلاء، فصار عندنا أهل مدين أصحاب الأيكة، وأهل القرية يقال لها: أيكة، والصحيح أن هؤلاء جميعاً متحدون، أمة واحدة، فتارة نسبوا إلى بلدتهم وهي مدين، وتارة نسبوا إلى غيضة أيكة ولا إشكال، فهنا يقول أهل مدين على الصحيح، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم وإنما لم يقل هاهنا أخوهم هذا جواب على سؤال مقدر وهو أنه في المواضع السابقة ينسب النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى قومه: {قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ} أخوهم صالح، ولما ذكر مدين قال: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} [سورة الأعراف:٨٥]، وهنا قال: {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ} فما نسبه إليهم، فمن أهل العلم من يقول بأن هؤلاء لم يكن منهم باعتبار التفريق بين أصحاب الأيكة وأهل مدين، قال: هم أهل مدين، وأما أصحاب الأيكة فلم يكن منهم؛ ولهذا لم يذكر ذلك جوابُ ابن كثير هنا.

وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل هنا "أخوهم شعيب"؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل: شجر ملتف كالغَيضة، كانوا يعبدونها؛ فلهذا لما قال: كذب أصحاب الأيكة المرسلين، لم يقل: "إذ قال لهم أخوهم شعيب"، وإنما قال: {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ}.

العلة التي ذكرها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في عدم قوله أخوهم شعيب: **وإنما لم يقل هنا أخوهم شعيب؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة**، لكن إذا قيل أهل مدين هو منهم، وإذا ذكر ثمود فصالح -عليه الصلاة والسلام- منهم، وإذا ذكر عاد فهود -عليه الصلاة والسلام- منهم، لكن لما نسبوا هنا إلى الأيكة التي عبدوها من دون الله -عز وجل- لم يضفه إليهم {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ}.

فقطع نسبة الأخوة بينهم؛ للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسبا، ومن الناس مَنْ لم يتفطن لهذه النكتة، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيبًا -عليه السلام-، بعثه الله إلى أمتين، ومنهم مَنْ قال: ثلاث أمم.

يعني ثلاث أمم من الممكن أن ينزّل على ما سبق: القرية، والشجر، ومدين.

وقوله: {وَأَصْحَابُ الأيْكَةِ} [سورة ق:١٤] قوم شعيب، وقاله إسحاق بن بشر: وقال غير جُوَيْبر: أصحاب الأيكة ومدين هما واحد، والله أعلم.

يمكن أن نستدل على هذا من القرآن، يعني في سورة هود لما ذكر الله خبره -عليه الصلاة والسلام- قال: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} [سورة هود:٨٤]، إلى أن قال لهم: {إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ}، فذكر الأشياء التي ذكرها هنا، وقال لهم: {أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ}، وهنا قال لهم: {فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا} [سورة الأعراف:٨٥]، نفس القضايا فدل على أنهم متحدون، والله تعالى أعلم.

والصحيح أنهم أمة واحدة، وُصفوا في كل مقام بشيء؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة.

{أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ} [سورة الشعراء:١٨١-١٨٤].

يأمرهم تعالى بإيفاء المكيال والميزان، وينهاهم عن التطفيف فيهما، فقال: {أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ} أي: إذا دفعتم إلى الناس فكملوا الكيل لهم، ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصا، وتأخذوه -إذا كان لكم -تامًا وافيًا، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون.

{وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ}: والقسطاس هو: الميزان.

القسطاس يقال: للميزان، ويقال: للعدل وآلته وبينهما ملازمة، وبعضهم يقول: هي كلمة غير عربية، وهذا يحتاج إلى دليل، ووصف القسطاس بأنه مستقيم يعني الميزان المعتدل، وإذا فسر بالعدل فتكون هذه من قبيل الصفات الكاشفة، بمعنى أنها غير مقيدة وإنما كاشفة، مثل قولك: هذا هو الحق الصحيح، ومعلوم أن الحق لا يكون غير صحيح، وإنما يكون ذلك من قبيل الصفات الكاشفة، وهكذا قد يقال: في الصراط المستقيم، إذا فسر الصراط بأن ذلك لا يقال إلا لكل من كان متصفاً بالاستقامة، فلا يقال له: صراط إن كان غير مستقيم، فيكون ما ذكر بعده من قوله: المستقيم من قبيل الصفات الكاشفة.

وقوله: {وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ}: أي: تنقصوهم أموالهم.

بخْسُ الناس أشياءهم قال الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: **لا تنقصوهم أموالهم**، ويدخل في عموم المعنى ما يحصل من نقص لهم في كل حق من حقوقهم، كل شيء أبخسوا فيه الناس أشياءهم كما أنه جاء هذا في بخس الميزان فكذلك بخسُ الناس أشياءهم في حقوقهم، كل إنسان يُعرف له حقه وفضله ولا يهضم، ومن الناس من إذا رضي وصف الناس بأكثر مما يستحقون، وإذا سخط هضمهم وعابهم ورماهم بكل قبيح مما هو صحيح ومما هو كذب مفترى، وهذا من بخس الناس أموالهم، هذا من بخس الناس أشياءهم، فإذا لم يعجبه أحد من أهل العلم مثلاً أو نحو هذا قال: هذا جاهل، هذا ما يفهم في العلم، {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ} [سورة المائدة:٨]، والعداوة لا يجوز أن تحمل الإنسان على ترك العدل، وهذا داخل في عموم قوله: {وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ}.

{وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ}: يعني: قطع الطريق، كما في الآية الأخرى: {وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ...} [سورة الأعراف:٨٦].

ويدخل في هذا كل ألوان الإفساد، إشاعة الفاحشة، والمنكر، وتغيير دين الله -عز وجل-، وتبديله، وما إلى ذلك.

وقوله: {وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ}: يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل، كما قال موسى -عليه السلام-: {رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ} [سورة الصافات:١٢٦]، قال ابن عباس، ومجاهد، والسُّدِّي، وسفيان بن عيينة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: {وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ} يقول: خلق الأولين، وقرأ ابن زيد: {وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلا كَثِيرًا} [سورة يس:٦٢].

قرأ ابن زيد: يعني هو لا يقصد أنه يقرأ قراءة من القراءات، وإنما أراد أن يفسر القرآن بالقرآن، يعني قرأ عندها هذه الآية بمعنى أنه فسر القرآن بالقرآن {وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ}، {وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلا كَثِيرًا} يعني خلقاً كثيراً فالجبلة بمعنى الخليقة، {خُلُقَ الْأَوَّلِينَ} فإن ذلك يقال له: جبلة

والموتُ أعظمُ حادثٍ *** ما يمرّ على الجِبلَّة

يعني على الخليقة.

{قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ} [سورة الشعراء:١٨٥-١٩١].

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها -تشابهت قلوبهم- حيث قالوا: {إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} يعنون: من المسحورين، كما تقدم.

والقول الآخر الذي مضى بمعنى أنك مخلوق مثلنا، بشر لك سحر يعني رئة، وكونه يفسر -كما سبق- بالبشر فهذا من قبيل التفسير اللازم فمن له رئة يعني أنه مخلوق بشر، أنت من البشر لست بملَك، وهذا هو اختيار ابن جرير -رحمه الله-، يعني أنك مثلنا تأكل الطعام وتشرب الشراب، لكن المعنى المتبادر هو المعنى الأول الذي ذكره ابن كثير {مِنَ الْمُسَحَّرِينَ} أي رموه بالسحر.

{وَمَا أَنْتَ إِلا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ} أي: تتعمد الكذب فيما تقوله، لا أن الله أرسلك إلينا.

{فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ}: قال الضحاك: جانبا من السماء، وقال قتادة: قطعا من السماء، وقال السدي: عذابًا من السماء.

الكِسَف، الكِسْفة يعني القطعة، والكسف يعني القطع أي: قطعاً من السماء، عذاباً، فهذه الأقوال التي ذكرها، قال: **جانباً من السماء، عذاباً من السماء، وقال قتادة: قطعاً من السماء** هو اختيار ابن جرير، وهل هذه المعاني المذكورة غير متنافية هذه الكسف التي تنزل من السماء هي عذاب بطبيعة الحال ليست أرزاقاً، ومن قال: جانباً من السماء يقولون على قطعة، فهي من باب اختلاف التنوع، واختلاف العبارة.

وهذا شبيه بما قالت قريش فيما أخبر الله عنهم في قوله تعالى: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا}، إلى أن قالوا: {أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلا}

[سورة الإسراء:٩٠-٩٢]، وقوله: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ...} الآية [الأنفال:٣٢]، وهكذا قال هؤلاء الكفرة الجهلة: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ...} الآية.

{قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} يقول: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم، وهكذا وقع بهم جزاءٌ كما سألوا، جزاءً وفاقًا؛ ولهذا قال تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.

قوله: {قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} هذا الجواب غير مشكل، يعني حينما قالوا: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا} أي: هات العذاب، {قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ} معناه: الذي يأتي بالعذاب هو الله -تبارك وتعالى- هو عالم بكم وبأحوالكم لا يخفى عليه شيء، ما أنا الذي يأتي بالعذاب، إنما يأتي العذاب من الله -جل جلاله- وهو مطلع على خلقه لا يخفى عليه شيء من أحوالهم.

ولهذا قال تعالى: {فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} وهذا من جنس ما سألوا، من إسقاط الكسف عليهم، فإن الله -سبحانه وتعالى-، جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام لا يَكُنُّهم منه شيء، ثم أقبلت إليهم سحابة أظلتهم، فجعلوا ينطلقون إليها يستظلون بظلها من الحر، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله تعالى عليهم منها شررًا من نار، ولهبا ووهجًا عظيمًا، ورجفت بهم الأرض وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم؛ ولهذا قال: {إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.

مثل هذا التفصيل في صفة العذاب هذا متلقى عن بني إسرائيل فيما يظهر -والله تعالى أعلم-؛ فلم يرد ذلك عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث ثابت صحيح، وإنما جاء مثل هذا عن بعض السلف كابن عباس -رضي الله عنهما- وجاء هذا عن بعض التابعين، قال هنا: {الظُّلَّةِ} يقول هذا جنس ما سألوه إلى آخره {فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} فسرها هنا بالسحابة جاءتهم، والظُّلل السحاب، والظلة السحابة، {هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ} [سورة البقرة:٢١٠] فهم سألوا العذاب {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا} من العذاب طلبوا ذلك فيكون هذا الذي نزل عليهم عذاب يوم الظلة باعتبار أن الله حقق دعاءهم، ظلة يعني السحاب، جاءهم العذاب من السماء، ومن أهل العلم يعني نحن لا نتقيد بهذه الرواية أو بهذا التفصيل في صفة العذاب، فإننا نقول: من أهل العلم من قال: إن العذاب أضيف إلى يوم الظلة، وما أضافه إلى الظلة بمعنى أن العذاب جاءهم من الظلة كما في هذا التفصيل، وإنما جاءهم من السماء مباشرة، نزل عليهم ما طلبوه، فالمقصود أننا لا نرتبط بمثل هذا التفصيل الذي جاء في بعض هذه الروايات التي يظن أنها مأخوذة عن بني إسرائيل فإضافة العذاب إلى الظلة هل يلزم من ذلك أن الظلة هي التي نزل فيها العذاب –الآية-، أولا يلزم منها هذا؟، قد يكون نزل فيها العذاب، ويكون ذلك تحقيقاً لما سألوا وما دعوا؛ لأن ذلك كله يقال له: سماء:

إذا نزلَ السماءُ بأرضِ قومٍ *** رعيناهُ وإنْ كانوا غضابا[1]

---

١ - انظر: إعراب القرآن الكريم وبيانه، محيي الدين الدرويش، (٦٧/٣).

نزل السماء يعني: السحاب، فكل ما علاك يقال له: سماء، ويحتمل ألا يكون هذا العذاب من الظلة، وإنما من السماء نفسها، فالله تعالى أعلم، لكن إضافته إلى يوم الظلة يشعر بأن العذاب جاءهم من نفس الظلة، {عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} يشعر أن هناك ارتباطاً، والعلم عند الله -تبارك وتعالى.

وقد ذكر الله تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن، كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق.

أي هذا جواب على سؤال مقدر وهو أن الله -تبارك وتعالى- هنا قال: {فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ} وفي موضع آخر ذكر أنه {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ} [سورة الحجر:٧٣]، وفي موضع ثالث {فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ} [سورة الأعراف:٧٨]، فهنا يجيب عن هذا بأن هذا ليس بمتناقض، ما بينه تعارض فكل ذلك حصل لهم، وهذا الكلام وهذه المواطن لطيفة، فيما سبق قال: هم أهل مدين، وكان شعيب من أنفسهم ولكن لم يقل هنا: "أخوهم شعيب"؛ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، ومثل {إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ} قطع نسب الأخوة بين المعنى وبين ما نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسباً، ومن الناس من لا يفطن إلى هذه اللطائف، ولو أن إنساناً جمعها من هذا الكتاب فقط فإنه سيجمع دفتراً كبيراً من هذه اللطائف، ثم بعد ذلك يصنفها على السور فيجتمع عنده نفائس، ودرر كثيرة جداً.

ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين؛ وذلك لأنهم قالوا: {لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [سورة الأعراف:٨٨]، فأرجفوا بنبي الله ومن اتبعه، فأخذتهم الرجفة.

يعني قابل إرجافهم بعذاب من جنسه وهو الرجفة.

وفي سورة هود قال: {وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ} [سورة هود:٩٤]؛ وذلك لأنهم استهزءوا بنبي الله في قولهم: {أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} [سورة هود:٨٧].

يعني هذا الاستهزاء، أسكتهم الملك صاح بهم الملك فأسكتهم بهذه الصيحة، فأسكتهم يعني أهلكهم.

قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم، فقال: {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ} [سورة الحجر:٧٣]، {وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ}، وهاهنا قالوا: {فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} على وجه التعنت والعناد، فناسب أن يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه.

{فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}.

فيكون ذلك اجتمع عليهم: صيحة، ورجفة، وإذا قيل بأن الظلة كان فيها عذاب أيضاً فيكون ذلك.

وروى محمد بن جرير عن يزيد الباهلي قال: سألت ابن عباس عن هذه الآية {فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ...} الآية قال: بعث الله عليهم وَمَدَةً وحرا شديدا، فأخذ بأنفاسهم فدخلوا البيوت، فدخل عليهم أجواف البيوت، فأخذ بأنفاسهم فخرجوا من البيوت هرابًا إلى البرية، فبعث الله سحابة فأظلتهم من الشمس، فوجدوا لها بردًا ولذة، فنادى بعضهم بعضا، حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها الله عليهم نارا، قال ابن عباس: فذلك عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم.

{إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}: أي: **العزيز في انتقامه من الكافرين، الرحيم بعباده المؤمنين.**

يعني لقومك يا محمد -عليه الصلاة والسلام-، وهذا الأثر الغالب أنه مأخوذ من بني إسرائيل.

تم بحمد الله وفضله.

بسم الله الرحمن الرحيم

المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

سورة الشعراء من الآية ١٩٢ إلى آخر السورة

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، وبعد:

قال ابن كثير -رحمه الله تعالى- في تفسير قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} [سورة الشعراء:١٩٢-١٩٥].

يقول تعالى مخبرًا عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد -صلى الله عليه وسلم-: {وَإِنَّهُ} أي: القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ} [سورة الشعراء:٥] الآية، {لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} أي: أنزله الله عليك وأوحاه إليك.

{نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ}: وهو جبريل -عليه السلام-، قاله غير واحد من السلف: ابن عباس، ومحمد بن كعب، وقتادة، وعطية العوفي، والسدي، والضحاك، والزهري، وابن جريج، وهذا ما لا نزاع فيه.

قال الزهري: وهذه كقوله: {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نزلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مصدقاً لما بين يديه} الآية [سورة البقرة:٩٧]، {عَلَى قَلْبِكَ} يا محمد، سالمًا من الدنس والزيادة والنقص؛ {لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ} أي: لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له.

وقوله: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك أنزلناه بلسانك العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بيِّناً واضحًا ظاهرًا، قاطعًا للعذر، مقيمًا للحجة، دليلاً إلى المحجة.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، أما بعد:

فقوله -تبارك وتعالى- في هذه الآية الكريمة: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، الضمير هنا عائد إلى القرآن بلا إشكال، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- يقول: {وَإِنَّهُ} **أي القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله:** {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ}، بمعنى أن الضمير يعود إلى القرآن المذكور في أول السورة، وبعض أهل العلم يقول: إن الضمير هنا يعود إلى القرآن، ولكنه يعود إلى غير مذكور وإنما يفهم من السياق، وهذا موجودٌ له نظائر في كتاب الله -تبارك وتعالى-، كقوله -تبارك وتعالى-: {حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ} [سورة ص:٣٢-٣٣]، فعلى القول بأن المقصود بقوله: {حَتَّى تَوَارَتْ} يعني: الشمس، الشمس ليس لها ذكر، فالضمير عائد إلى غير مذكور يفهم من السياق، وإن لم يكن محل اتفاق في هذه الآية أن المراد الشمس فإن بعضهم يقول: {حَتَّى تَوَارَتْ} أي: الخيل، يعني غابت عن نظره أبعدت في السير، فلا يكون فيه شاهد هنا، وأمثلة هذا كثيرة لا إشكال فيها.

{وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} **أي: أنزله عليك وأوحاه إليك.**

قال: {نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ}، وهو جبريل، وهي قراءة حفص ونافع وابن كثير وأبي عمرو، وقرأ بقية السبعة: {نزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الأَمِينَ}، {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ} {نزَّلَ} أي: رب العالمين {بِهِ الرُّوحَ الأَمِينَ}

نزَّل به جبريل -عليه الصلاة والسلام-، فيكون جبريل -عليه الصلاة والسلام- الروح الأمين منزّلاً من الله أنزله الله بهذا الوحي، بهذا القرآن، فيكون في محل نصب مفعول به، على هذه القراءة، والقراءة هذه التي نقرأ به {نزلَ بِهِ الرُّوحُ الأمينُ}، نزل به جبريل من عند الله -تبارك وتعالى-، {قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ} [سورة البقرة:٩٧].

وقوله -تبارك وتعالى-: {عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ}، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [سورة الفرقان:١]، قال: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ}، أي: واضح، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ} [سورة فصلت:٤٤]، فهذا القرآن امتن الله -تبارك وتعالى- على هذه الأمة بإنزاله بهذا اللسان العربي البين الواضح الميسر، {وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ} [سورة القمر:١٧].

{وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ} [سورة الشعراء:١٩٦-١٩٩].

يقول تعالى: وإنَّ ذِكْر هذا القرآن والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم، الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك، حتى قام آخرهم خطيبًا في ملئه بالبشارة بأحمد: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} [سورة الصف: ٦].

والزُّبُر هاهنا هي الكتب وهي جمع زَبُور، وكذلك الزبور وهو كتاب داود، وقال تعالى: {وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ} [سورة القمر:٥٢] أي: مكتوب عليهم في صحف الملائكة.

قوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَإِنَّهُ} الضمير فيما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا يرجع إلى القرآن، وهو اختيار أبي جعفر بن جرير -رحمه الله تعالى-، {وَإِنَّهُ} أي: القرآن، {لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ}، والحافظ ابن كثير -رحمه الله- وسبقه إلى ذلك ابن جرير وجماعة من السلف يقولون: {وَإِنَّهُ} أي: القرآن، أي أن القرآن مذكور في كتب الأولين، يعني جاء التنويه به وجاء ذكره في كتبهم.

ومن أهل العلم من يقول: المراد {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ} أي: ما تضمنه من الأحكام والهدايات مضمن في كتب الأولين، وبعضهم يقول: إن الضمير يرجع إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-، {وَإِنَّهُ} أي: النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهذا لا يخلو من بعد، والأقرب -والله تعالى أعلم-: {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ} يعني: ذكر القرآن، فالله -تبارك وتعالى- يحتج عليهم بهذا، فهم يعرفون؛ ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاء بَنِي إِسْرَائِيلَ}، فليس المقصود ما تضمنه من الهدايات والأحكام، لاسيما أن هذا القرآن قد حوى من الهدايات والأحكام ما لا يوجد في كتب السابقين؛ لأن هذه الشريعة هي بمنزلة الشرائع المتعددة، وقد جعلها خاتمة الشرائع، فما يوجد في كتاب الله -تبارك وتعالى- من هدايات أعظم وأوسع وأكثر مما يوجد في الكتب السابقة.

ثم قال تعالى: {أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ} أي: أوليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها؟ والمراد: العدول

منهم، الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد -صلى الله عليه وسلم- ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك مَنْ آمن منهم كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي عَمَّنْ أدركه منهم ومَنْ شاكلهم، وقال الله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ} الآية [سورة الأعراف:١٥٧].

أي باعتبار أن سلمان الفارسي -رضي الله تعالى عنه- تحول من المجوسية إلى دين أهل الكتاب، وصار له علم ومعرفة وإيمان، وكان يتتبع خيار من بقي منهم، كما هو معلوم في قصته، وخبر إسلامه -رضي الله تعالى عنه وأرضاه-، فقوله -تبارك وتعالى-: {أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ} قال: أي العدول منهم؛ لأن غير العدول لا يعترفون بهذا كما في قوله -تبارك وتعالى-: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَؤُلاء أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ سَبِيلاً} [سورة النساء:٥١]، فهذه نازلة في بعض أحبار اليهود لما ذهبوا إلى مكة وحرضوا المشركين على قتال النبي -صلى الله عليه وسلم-، وسألهم المشركون: نحن أهدى أم محمد -صلى الله عليه وسلم-؟ فقالوا: بل أنتم أهدى من محمد، وسجدوا لآلهة المشركين، فهؤلاء أمثال كعب بن الأشرف وحيي بن الأخطب وأمثال هؤلاء من الكذبة لا يعترفون بذلك.

ثم قال تعالى مخبرًا عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن أنه لو أنزله على رجل من الأعاجم...

قوله -تبارك وتعالى-: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ} استدل بها من قال: {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ} أي: النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيحتج بهذه الآية، والحاصل أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مذكور في كتب الأولين، كما تدل هذه الآية صراحة، لكن الآية التي في سورة الشعراء {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ} هي في القرآن؛ لأن السياق يدل على ذلك، السياق في القرآن {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نزلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ} يعني: القرآن، {عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ}، وسبب الترجيح في هذا هو القاعدة التي ذكرتها في مناسبات شتى: أن توحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، يعني السياق كله في القرآن، {وَإِنَّهُ} أي: القرآن، {لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، {نزلَ بِهِ الرُّوحُ} أي: القرآن {نزلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} كل هذا في القرآن، ثم قال: {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، يعني {وَإِنَّهُ} أي: القرآن، قال: {أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ} يعني: القرآن، قال: {وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ} أي: القرآن، {فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم} أي: القرآن، كل الضمائر في القرآن، والقاعدة: أن توحيد مرجع الضمائر يعني كون الضمائر جميعاً ترجع إلى شيء واحد أولى من تفريقها بأن يقال: هذا يرجع إلى كذا، وهذا يرجع إلى كذا، هذا هو سبب ترجيح هذا القول: أن المقصود به القرآن، {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ}، وأما الآية الأخرى قال: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ} [سورة الأعراف:١٥٧] فيعني: الرسول النبي الأمي، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- مذكور في كتبهم والقرآن أيضاً مذكور في كتبهم، وآية الشعراء دلت على أن القرآن له ذكر في كتب الأولين، ولا تحمل هذه الآية على غير ذلك، والله تعالى أعلم.

ثم قال تعالى مخبرًا عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن أنه لو أنزله على رجل من الأعاجم ممَّنْ لا يدري من العربية كلمة، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته، لا يؤمنون به؛ ولهذا قال: {وَلَوْ نزلْنَاهُ

عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ}، كما أخبر عنهم في الآية الأخرى: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ} [سورة الحجر:١٤-١٥] وقال تعالى: {وَلَوْ أَنَّنَا نزلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ} [سورة الأنعام:١١١]، وقال: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ...} الآية، [سورة يونس:٩٦-٩٧].

كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: أن القرآن لو نزل على رجل أعجمي لا يعرف من العربية حرفاً فقرأه عليهم بهذا اللسان العربي المبين الفصيح غاية الفصاحة فإنهم لا يؤمنون، بمعنى: أنه لو نزل بهذه الصفة على رجل أعجمي لا يعرف العربية فانفتق لسانه بالعربية بهذا القرآن، هذه آية عظيمة جداً، كيف يكون هذا القرآن بهذه الفصاحة وينطق به من لا يعرف العربية أصلاً؟!، يقول: ومع ذلك فإنهم لا يؤمنون؛ لأنهم أهل مكابرة، ثم استشهد الحافظ ابن كثير -رحمه الله- بالآيات الأخرى التي تدل على مكابرتهم وعنادهم، {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا}، يعرجون هم، يصعدون أو يرون الملائكة تصعد، على القول الآخر، {لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا}، وفي القراءة الأخرى: {سُكِرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ} يعني يقولون: سُحرنا، يخيل إلينا، هذا كله لمكابرتهم، فالله قد ختم على قلوبهم، {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة يونس:٩٦-٩٧]، والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً، هذا على المعنى الذي ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله.

وظاهر كلام ابن جرير -رحمه الله- {وَلَوْ نزلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ} يعني: أنه لو نزل على بعض البهائم، باعتبار أن الأعجم هو البهيم الذي لا يتكلم ولا ينطق، {عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ} ، كأنه يقول: إن الأعجمي لو كان مراداً هنا لقيل: ولو نزلناه على بعض الأعجميين، يعني الأعاجم، أما الذي لا يعقل فيقال: أعجم وأعجمون، {وَلَوْ نزلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ}، هذا ظاهر كلام ابن جرير -رحمه الله-، وما ذكره ابن كثير -رحمه الله- لعله أقرب أنه لو نزل على بعض الأعجمين أي: الأعاجم الذين لا يعرفون العربية.

وكثير من أهل العلم يفرقون بين الأعجمي والعجمي، فيقولون: إن العجمي من كان أصله من العجم، غير العرب، كل من ليس عربياً فهو عجمي باعتبار الأصل، ولو كان يعرف العربية، ولو كان فصيح اللسان، فالعجمي قد يتعلم العربية، وقد ينشأ، قد يكون عجمي الأصل ولكنه عربي النشأة واللسان، وقد يتكلم العجمي بالعربية أفضل مما يتكلم به بعض أهلها، وبعض علماء اللغة كانوا من الأعاجم أو من العجم، فهؤلاء يقولون: إن العجمي من كان أصله من غير العرب، وأما الأعجمي فهي عجمة اللسان، سواء كان أصله من العرب أو كان أصله من العجم، فالعجمي باعتبار الأصل، والأعجمي باعتبار اللسان، وهنا قال: {وَلَوْ نزلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ} يعني: عجمة اللسان، وهذا هو المقصود لا الأصل، فهو لا يحسن العربية ولو كان أصله من العرب، ومن أهل العلم من لا يفرق بين العجمي والأعجمي ويرى أنهما واحد، فهذا المعنى الذي ذكره ابن كثير -رحمه الله-: أنه لو نزل على من لا يعرف العربية -وفي هذا آية عظيمة- لبقوا على مكابرتهم وعنادهم، ولم يؤمنوا.

ومن أهل العلم من يقول: {وَلَوْ نزلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأعْجَمِينَ} أي: باللغة العجمية، بلغة غير اللغة العربية فإنهم يحتجون عند ذلك ويقولون: {أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ} [سورة فصلت:٤٤] يعني: كيف نُخاطَب بما لا نفهم ولا نعرف، لماذا لم نخاطب بلساننا ولغتنا؟، والله -تبارك وتعالى- ما أرسل من رسول إلا بلسان قومه، وبين علة ذلك قال: {لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} [سورة إبراهيم:٤]، فالبيان لا يحصل إلا بهذا، والحجة قائمة عليهم ببعث هذا النبي -عليه الصلاة والسلام- منهم، من الأميين ليكون مشاكلاً لأحوالهم، ويسهل عليهم التلقي منه، والفهم، ولهذا قال الله -تبارك وتعالى-: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ} [سورة الجمعة:٢]، وذكر هذا على سبيل الامتنان، {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}، فالحاصل أن هذه الأقوال تحتملها الآية، ولكن الأقرب -والله تعالى أعلم- هو ما ذكره الحافظ ابن كثير -رحمه الله تعالى-، ولو قال قائل: إن هذه الأقوال يمكن أن تجتمع تحت هذه الآية باعتبار أن الله -تبارك وتعالى- يذكر عنادهم في كل الحالات، وسواء نزل هذا القرآن على العربي الفصيح، أو على من لا يعرف العربية فإنهم لا يؤمنون، أو نطق من ليس من خواصه النطق؛ لأن النطق مختص بالإنسان، أو كان نزل بلغة غير لغة العرب فإنهم يبقون على عنادهم في الحالات كلها فلا يؤمنون، لو قال قائل مثل هذا فقد يكون له وجه من النظر، والله أعلم.

قال تعالى: {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ} [سورة الشعراء:٢٠٠-٢٠٩].

يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد، أي: أدخلناه في قلوب المجرمين.

{لا يُؤْمِنُونَ بِهِ} أي: **بالحق** {حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} أي: **حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار.**

قوله: {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}، على قول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا وهو اختيار ابن جرير، {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ} أي: أدخلناه، {فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} يعني: سلكنا التكذيب والكفر، أدخلنا التكذيب والكفر في قلوب المجرمين، فيكون الضمير هنا عائداً إلى غير مذكور، هذا مثال آخر على عودة الضمير إلى غير مذكور، على هذا القول، {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لا يُؤْمِنُونَ بِهِ} لا يؤمنون به، {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ} أي: التكذيب والكفر.

وبعض أهل العلم يقول: {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ} أي: القرآن، {فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}، لمّا بيّن فصاحته وأنه بلسان عربي مبين، قال: {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ} أي: القرآن، فالضمير أيضاً عائد إلى القرآن، فتوحيد مرجع الضمائر أولى من تفريقها، {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ} أي: القرآن {فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ}، يكون المعنى {سَلَكْنَاهُ} أي: أدخلناه، بمعنى لمّا قال: {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ} ففهمه هؤلاء وعقلوا معناه، وعرفوا مقاصده؛ لأنهم خوطبوا بلغتهم، {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ} أي: القرآن، فبعد أن فهموا حصل منهم التكذيب والكفر، {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ} أي: القرآن، بمعنى أنهم فهموه وعقلوا معناه ولكنهم كفروا بعد هذا الفهم والعلم، عرفوا فصاحته وإعجازه ومع ذلك كذبوا، وهذا

المعنى هو الذي ذهب إليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- في أضواء البيان، ويساعد عليه قاعدة توحيد مرجع الضمائر، الحديث كله عن القرآن، {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ}، لكن القول الآخر ليس بمستبعد أيضاً باعتبار أن المقصود التكذيب والجحود، فإن الآيات التي تدل على أن الله -تبارك وتعالى- يوفق من شاء للهدى، ويضل من يشاء كثيرة جداً، وقد قال الله -تبارك وتعالى-: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ} [سورة التغابن:٢] على أحد الأقوال في معنى الآية، خلقكم فـ، "الفاء" تدل على التعقيب المباشر، فعلى أحد الأقوال في الآية {خَلَقَكُمْ} هكذا، فريق للجنة وفريق للسعير، ويدل على ذلك حديث الملَك، حديث الصادق المصدوق لمّا يبلغ الجنين أربعة أشهر يأتيه الملَك، يُبعث إليه الملك، ويؤمر بأربع كلمات ومنها شقي أو سعيد، والله يقول: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة يونس:٩٦-٩٧].

{فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً} أي: **عذاب الله بغتة**، {وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ}؟ أي: **يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أُنظروا قليلا ليعملوا في فزعهم بطاعة الله، كما قال تعالى**: {وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ} **إلى قوله**: {مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ} [سورة إبراهيم:٤٤]، **فكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته، ندم ندمًا شديدًا، هذا فرعون لما دعا عليه الكليم بقوله**: {رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} **إلى قوله**: {قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا}، **فأثرت هذه الدعوة في فرعون، فما آمن حتى رأى العذاب الأليم**، {حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ}، **إلى قوله**: {وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [سورة يونس:٩٠-٩١]، **وقال**: {فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ} **الآيات**.

هذا كلام الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أن هؤلاء لا يؤمنون حتى يأتيهم العذاب فيتمنون الرجعة، وهل هذا في الدنيا أو المقصود به عذاب الآخرة؟ ظاهر هذه الآيات أن ذلك في الدنيا للشواهد التي ذكرها.

وعلى هذا جرى عامة أهل العلم، وإليه ذهب ابن جرير -رحمه الله-، وقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا في قوله: {فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ} قال: أي يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أُنظروا قليلاً ليعملوا، {هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ} الاستفهام هنا بمعنى التمني، يدل على التمني، {هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ}، ولهذا فسرها ابن كثير -رحمه الله- بهذا، قال: يتمنون، بهذا الاعتبار، "هل" استفهامية، أداة استفهام، فهي هنا يراد بها التمني {هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ}، فهم لا يتساءلون هل يُنظرون أو لا؟، يعني ليس المقصود به مجرد الاستفهام، وإنما يطلبون ذلك ويتمنونه.

وقوله تعالى: {أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ}: **إنكار عليهم، وتهديد لهم؛ فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيبًا واستبعادًا**: {ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ} [سورة العنكبوت:٢٩]، **كما قال تعالى**: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ} **الآيات**، [سورة العنكبوت:٥٣].

هم يقصدون بهذا {ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ} يعني: الذي تعدنا به، كما حصل للأمم المكذبة.

ثم قال: {أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ} **أي: لو أخرناهم وأنظرناهم، وأمليا لهم برهة من الزمان وحينًا من الدهر -وإن طال- ثم جاءهم أمر الله، أيّ شيء يُجدي عنهم ما كانوا فيه من النعم؟**، {كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا} [سورة

النازعات:٤٦]، وقال تعالى: {يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ} [سورة البقرة:٩٦]، وقال تعالى: {وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى} [سورة الليل:١١]؛ ولهذا قال: {مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ}.

وفي الحديث الصحيح: ((يؤتى بالكافر فيغمس في النار غمسة، ثم يقال له: هل رأيت خيرًا قط؟ هل رأيت نعيمًا قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤسًا كان في الدنيا، فيصبغ في الجنة صبغة، ثم يقال له: هل رأيت بؤسًا قط؟ فيقول: لا والله يا رب))[1] أي: ما كأنّ شيئًا كان.

ثم قال الله تعالى مخبرًا عن عدله في خلقه: أنَّه ما أهلك أمة من الأمم إلا بعد الإعذار إليهم، والإنذار لهم وبعثة الرسل إليهم وقيام الحجة عليهم؛ ولهذا قال: {وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنْذِرُون ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ} كما قال تعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا} [سورة الإسراء:١٥]، وقال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا} إلى قوله: {وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} [سورة القصص:٥٩].

وقوله -تبارك وتعالى- هنا: {وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنْذِرُون ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ}، {ذِكْرَى} بمعنى: تذكرة، وكثير من أهل العلم يقولون: إنها منصوبة على المصدرية، وبعضهم يقول: منصوبة على أنها مفعول لأجله، {وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلا لَهَا مُنْذِرُون ذِكْرَى}، يعني أن حال هؤلاء المُنذَرين أنهم مُذكِّرون، جاءوا للذكرى، ولهذا بعضهم يقول: هو مفعول لأجله، يعني من أجل الذكرى، وبعضهم يقول: إنه خبر لمبتدأ محذوف، أي هي ذكرى، أو تلك ذكرى، أو هذا ذكرى، -والله تعالى أعلم-، {ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ}، وهذه الآية أو هذه الآيات كما في قوله: {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ} على القول الذي ذكره ابن جرير وابن كثير أن المقصود بذلك هو التكذيب والكفر، {كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ} أي: الكفر والتكذيب، وهذا عند أوضح الآيات وأعظم الحجج والبينات والبراهين والمعجزات، ومع ذلك التكذيب والجحود، وهذا فيه عبرة وإن لم يكن ذلك مقصوداً في مثل هذه المجالس في التفسير فإن المقصود هنا هو توجيه كلام المفسرين، وبيان وجه الترجيح، وما يحتاج إلى بيان فقط، دون الاشتغال بأمور أخرى زائدة عنه، لكن لا بأس من التنبيه أحياناً على بعض المعاني التي في غاية الأهمية، ويحتاج الإنسان أن يقف عندها، فإن دلائل الحق الواضحة كما أن الله -تبارك وتعالى- يهدي بها من يشاء من عباده فإنها قد تكون سبباً لزيادة الغي والكفر والضلال لدى آخرين، كما قال الله -تبارك وتعالى-: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} [سورة التوبة:١٢٥]، فآيات القرآن كما أنها تحمل الهداية فكذلك أيضاً يضل بها ويزداد كفراً وغياً من شاء الله -تبارك وتعالى- من خلقه، وهذا كثير ومشاهد، فقد تُذكر الهدايات، وينتفع بها أقوام ويتخذها آخرون محلاً للتندر والسخرية، أو تكون سبباً لمزيد من الزيغ والتكذيب والضلال؛ لأن نظرهم لا

---

١ - رواه الإمام أحمد في المسند، برقم (١٣١١٢)، وقال محققوه: " إسناده صحيح على شرط مسلم"، ولفظه: ((يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال له: يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا، والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط))، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٨٠٠٠).

يقع على وجه هدايتها وإنما يقع على أمور قد تكون سبباً لمزيد من زيغهم وضلالهم وكفرهم، وهذا كما أنه في الآيات المتلوة كذلك أيضاً هو في الآيات المشهودة في الآفاق وفي الأنفس، هي التي تقع للناس من عقوبات عامة أو خاصة، وما يحصل مما يشاهده الناس من دلائل قدرة الله -تبارك وتعالى-، وما يخوف به عباده أيًّا كان ذلك، سواء كان من قبيل الخسوف أو الكسوف أو الزلازل، أو البراكين أو الفيضانات أو غير ذلك، من الناس من يتعظ بهذا ويعتبر ويخاف الله -عز وجل-، ويراجع نفسه ويتوب، ومن الناس من لا يزداد بهذا إلا انتكاسة وكفراً وضلالاً وتكذيباً وإمعاناً في الغي، حتى بلغ الأمر في بعض البلاد أنهم يأتون بالخطباء والوعاظ الذين قالوا: إن هذه آيات وعقوبات، ويؤذونهم، ويحاسبونهم على مثل هذا الكلام، كيف تقول: هذه آيات، وتقول: إن هذه عقوبة؟، هذا الزلزال الذي جعل عالي البلد سافلها، كيف تقول: هذه عقوبة؟، فبعض الناس ما تزيده هذه إلا غياً وتكذيباً وكفراً وضلالاً، وقل مثل ذلك في الآيات المتلوة، يأخذها مأخذ السخرية أو الاستهزاء والتندر أو الاستبعاد، والله المستعان.

قال تعالى: {وَمَا تَنزلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ} [سورة الشعراء:٢١٠-٢١٢].

يقول تعالى مخبرًا عن كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد: أنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله، {وَمَا تَنزلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ}، ثم ذكر أنه يمتنع عليهم من ثلاثة أوجه، أحدها: أنه ما ينبغي لهم، أي: ليس هو من بُغْيتهم ولا من طِلْبتهم.

يعني ليس هذا من مطالب الشياطين، هم غير مؤهلين لهذا، وإنما هم محل الأرجاس والأدناس والكفر والضلال، وليسوا محلاً لهذه الهدايات، ولا يدعون إليها ولا يرفعون بها رأساً.

لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونور وهدى وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة؛ ولهذا قال تعالى: {وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ}.

إي، ما ينبغي لهم، هذا لا يكون أبداً، يعني الذين كانوا يعرضون على النبي -صلى الله عليه وسلم- الطب والرقية، وأنهم يعرفون ذلك ويحسنونه، يظنون النبي -صلى الله عليه وسلم- به مس، ولهذا قالوا عنه: إنه مجنون، فيعزون ذلك الذي جاء به -عليه الصلاة والسلام- إلى الشياطين، فالله -تبارك وتعالى- يقول: **{وَمَا تَنزلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ}**، الشياطين ما تأتي بمثل هذا، ولا تشتغل بهذه الهدايات، إنما شغلهم هو الضلال والفساد والغي.

وقوله: {وَمَا يَسْتَطِيعُونَ} أي: ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك، قال الله تعالى: {لَوْ أَنزلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ} [سورة الحشر:٢١].

ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته، لما وصلوا إلى ذلك؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله؛ لأن السماء ملئت حرسًا شديدًا وشهبا في مُدّة إنزال القرآن على رسوله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه، لئلا يشتبه الأمر، وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ولرسوله؛ ولهذا قال تعالى: {إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ}، كما قال تعالى مخبرًا عن الجن:

{وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا} إلى قوله: {أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} [سورة الجن:٨-١٠].

قال تعالى: {فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [سورة الشعراء:٢١٣-٢٢٠].

يقول تعالى آمرًا بعبادته وحده لا شريك له، ومخبرًا أنّ مَنْ أشرك به عذبه.

ثم قال تعالى آمرًا لرسوله -صلى الله عليه وسلم- أن ينذر عشيرته الأقربين، أي: الأدنيْن إليه، وأنه لا يُخلِّص أحدًا منهم إلا إيمانُهُ بربه -عز وجل.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}، العشيرة: الأقربون، وبعضهم يقول: العشيرة من يجتمع بهم الجد العاشر، وبعضهم يقول غير ذلك، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- حينما أمره ربه -تبارك وتعالى- بهذا {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ}، إذا جمعت الروايات الصحيحة فيما قاله النبي -صلى الله عليه وسلم- تجد أن بعضها قد ذكر فيه قريشاً، قبيلة، عمَّ ثم خصَّ، يعني تدرج من قريش إلى مَن دونهم حتى وصل إلى فاطمة بنت محمد -رضي الله عنها وأرضاها-، وتخصيص العشيرة، {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}، لا يعني أن الإنذار مختص بهم كما هو معلوم، والله يقول: {لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ} [سورة الأنعام:١٩]، {لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} [سورة الفرقان:١]، وما شابه ذلك من الآيات الكثيرة، {لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [سورة الشورى:٧]، ولكن هؤلاء أولى، وهكذا يكون الشأن في أتباع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والدعاة من بعده فإنهم يبدءون بالأقرب، فهم أولى بالإنذار والهداية والمعروف.

وأمره أن يُلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين، ومن عصاه من خلق الله كائنًا مَنْ كان فليتبرأ منه؛ ولهذا قال تعالى: {فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ}.

هنا قال: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}، سواء قلنا هم قريش أو هم بنو عبد مناف أو بنو هاشم، جمع الروايات في هذا يفسره، وقوله هنا: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، اخفض جناحك لمن اتبعك، ما تطرق لها الحافظ ابن كثير -رحمه الله- هنا، {لِمَنِ اتَّبَعَكَ}، {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ}، خفض الجناح يعني إلانة الجانب، {وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ} [سورة آل عمران:١٥٦]، قال قبله: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ} فلين الجانب سبب لتأليف القلوب والاستجابة والقبول، والله -تبارك وتعالى- وصف أهل الإيمان ومن مع النبي -صلى الله عليه وسلم- من أصحابه قال: {فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [سورة المائدة:٥٤]، وقال في وصف أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم-: {وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ} [سورة الفتح:٢٩]، وهنا قوله: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، هذا القيد، وهو قوله: {لِمَنِ اتَّبَعَكَ} هل يفيد التخصيص؟ بمعنى هل يوجد من المؤمنين من لا يتبع النبي -صلى الله عليه وسلم- فيحتاج إلى غلظة ولا يشمله ما أُمر به النبي -صلى الله عليه وسلم- من تليين الجانب لأتباعه؟، {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}، والذين لا يتبعونه من المؤمنين، بمفهوم المخالفة فإنه لا يلين جانبه إليهم، إن كان هذا هو المراد، يعني هل يتصور من المؤمنين

عدم اتباع النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيكون من المؤمنين من يتبع ومنهم من لا يتبع، هؤلاء يلان الجانب لهم وهؤلاء لا يلان الجانب لهم، مع أن مقتضى الإيمان هو الاتباع، {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} [سورة النساء:٦٥]، {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا} [سورة النور:٥١]، وما شابه ذلك من الآيات، بعضهم كصاحب الكشاف يقول: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} بأن من كان مريداً للإيمان فإن حقق ذلك وانقاد فإنه يلان له، فيكون سماهم بالمؤمنين باعتبار ما يصيرون إليه إن وجد الإقبال على الإيمان، لكن هذا فيه بعد، فهذا ذكره احتمالاً، وذكر وجهاً آخر وهو أن المراد {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} قال: الذين يظهرون الإيمان على نوعين، نوع يكون من المؤمنين حقاً، ويكون متبعاً للنبي -صلى الله عليه وسلم- منقاداً مستجيباً مطيعاً، فهؤلاء هم أهل الإيمان حقيقة، والنوع الثاني: هم من الفساق أو من المنافقين، والله يقول: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ} [سورة التوبة:٧٣]، فأهل الفسق وأهل النفاق لا يكون لهم من إلانة الجانب كما يكون لأهل الإيمان الكامل، لأهل الطاعة والاستجابة، هكذا ذكر، وأظن أن أحسن من هذا -والله تعالى أعلم- ما ذكره الشنقيطي -رحمه الله- من أن ذلك للتوكيد، {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} أن ذلك للتوكيد، وأن المؤمنين متبعون للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فالله يقول: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} توكيداً، كان بالإمكان أن يقال: واخفض جناحك للمؤمنين، فذكر الاتباع من باب التوكيد، فتكون من قبيل الصفة الكاشفة، كقوله -تبارك وتعالى-: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ} [سورة الفاتحة:٦] إذا قلنا: إن الصراط لا يكون صراطاً في الأصل إلا إذا تحقق فيه الاستقامة، لا يقال له: صراط إلا أن يكون مستقيماً، فإذا قال: {اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ}، فهذه صفة كاشفة، يعني لا مقيدة، بخلاف ما إذا قلت: رجل طويل، لكن إذا قلت: رجل ذكر، الرجل لا يكون إلا ذكراً، امرأة أنثى، هذه صفة كاشفة، لكن لما تقول: امرأة طويلة، هذه مقيدة، لما تقول: نار حارة، هذه صفة كاشفة، النار لا تكون إلا حارة في الأصل، وهكذا، فهنا {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} يكون المقصود بذلك التوكيد، لمن اتبعك من المؤمنين، والله تعالى أعلم.

والجناح يقال للجانب، ويد الإنسان جناحه، فإن الإنسان إذا أراد أن يبطش رفع يده، والله يقول: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ} [سورة الإسراء:٢٤] يعني: جناحك الذليل، يعني جانبك.

ولهذا قال تعالى: {فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ}، وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة، بل هي فرد من أجزائها، كما قال تعالى: {لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ} [سورة يس:٦]، وقال تعالى: {لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا} [سورة الشورى:٧]، وقال تعالى: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ} [سورة الأنعام:٥١]، وقال تعالى: {لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا} [سورة مريم:٩٧]، وقال تعالى: {لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [سورة الأنعام:١٩]، كما قال تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [سورة هود: ١٧].

وفي صحيح مسلم: ((والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة، يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار))[٢].

وقد وردت أحاديث كثيرة في نزول هذه الآية الكريمة، فلنذكر بعضاً منها:

روى الإمام أحمد -رحمه الله- عن ابن عباس قال: لما أنزل الله -عز وجل-: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ}، أتى النبي -صلى الله عليه وسلم- الصفا فصعد عليه، ثم نادى: ((يا صباحاه))، فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه، وبين رجل يبعث رسوله، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل، تريد أن تغير عليكم، صدقتموني؟))، قالوا: نعم. قال: ((فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد))، فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ} [سورة المسد:١][٣].

ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي.

وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت: لما نزلت: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ}، قام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: ((يا فاطمة بنت محمد، يا صفية ابنة عبد المطلب، يا بني عبد المطلب، لا أملك لكم من الله شيئا، سلوني من مالي ما شئتم))[٤]، انفرد بإخراجه مسلم.

وروى الإمام أحمد عن قَبِيصة بن مُخَارق وزُهَير بن عمرو قالا لما نزلت: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ} صَعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رَضْمَةً من جبل على أعلاها حجر، فجعل ينادي: ((يا بني عبد مناف، إنما أنا نذير، إنما مثلي ومثلكم كرجل رأى العدو، فذهب يربأ أهله، يخشى أن يسبقوه، فجعل ينادي ويهتف: يا صباحاه))[٥].

ورواه مسلم والنسائي.

جمع الروايات يبين المراد -والله تعالى أعلم-، في بعضها النبي -صلى الله عليه وسلم- نادى قريشاً ((يا معشر قريش)).

وقوله تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} أي: في جميع أمورك؛ فإنه مؤيدك وناصرك وحافظك ومظفرك ومُعْلٍ كلمتك.

---

٢ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى جميع الناس ونسخ الملل بملة، برقم (١٥٣).

٣ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٨٠١)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

٤ - رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}، برقم (٢٠٥)، والنسائي، كتاب الوصايا، باب إذا أوصى لعشيرته الأقربين، برقم (٣٦٤٨)، والترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في إنذار النبي -صلى الله عليه وسلم- قومه، برقم (٢٣١٠)، وأحمد في المسند، برقم (٢٥٠٤٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح ، رجاله ثقات رجال الشيخين.

٥ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٠٦٠٥)، وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيّيْه، فقد خرّج لهما مسلم.

وقوله تعالى: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} أي: هو معتن بك، كما قال تعالى: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [سورة الطور:٤٨].

قال ابن عباس: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} يعني: إلى الصلاة.

وقال عكرمة: يرى قيامه وركوعه وسجوده.

وقال الحسن: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}: إذا صليت وحدك.

وقال الضحاك: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} أي: من فراشك أو مجلسك.

وقال قتادة: {الَّذِي يَرَاكَ}: قائما وجالسا وعلى حالاتك.

قوله -تبارك وتعالى-: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ}، وفي الآية الأخرى {فَتَوَكَّلْ} [سورة النمل:٧٩] والفاء تشعر بالتعليل كما أنها تدل على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، فإن هذا الإنذار له تبعه، وسيَلْقى -صلى الله عليه وسلم- بسبب ذلك فأمره بالتوكل وجمع بين هذين الاسمين الكريمين {الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ} فإن من تتوكل عليه قادر على حفظك وإعزازك ونصرتك وكفايتك، كما أنه لطيف بك رحيم، ويأتيك من ألطافه ما لا يخطر لك على بال.

قال: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}، كما يقول الله -تبارك وتعالى-: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ} [سورة يونس:٦١] يعني: يراك في كل حالاتك، هو شاهد عليك ناظر إليك في كل حالاتك، وهنا {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} أي: هو معتنٍ بك، كما قال: {وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا} [سورة الطور:٤٨]، قال ابن عباس: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} **يعني: إلى الصلاة**، حين تقوم إلى الصلاة، وهذا الذي اختاره ابن جرير -رحمه الله-، لكن ما وجه هذا القول، لماذا خصصه بالصلاة، ما وجهه؟ القرينة هي ما بعده، أنه قال: {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}، فهما حالتان متقابلتان، {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} **قال: إلى الصلاة** {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ}، فهو سواء كان في صلاته وحده أو كان مع غيره، مع الجماعة، {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}.

قال: **وقال عكرمة: يرى قيامه وركوعه وسجوده**، وهذا يرجع إلى الأول حينما تقوم إلى الصلاة يعني يرى هذه الصلاة، يراك في هذه الصلاة، قيامك وسجودك إلى آخره، فهذا ليس بقول آخر، وقال الحسن: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} **قال: إذا صليت وحدك**، وهذا لا ينافي ما قبله، ولهذا فإن أكثر المفسرين يقولون: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} يعني: في حال الانفراد، إذا صليت وحدك، إذا قمت إلى الصلاة وحدك، وبعضهم يخصصه بقيام الليل، {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} باعتبار أن القيام ينصرف غالباً إلى صلاة الليل، ولهذا يعبر بعضهم ويقول: {حِينَ تَقُومُ} أي: من فراشك، كما يأتي.

وقال الضحاك: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} **أي: من فراشك أو مجلسك**، وإلى صلاتك أيضاً، وهذا الذي ذهب إليه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} من مجلسك أو من فراشك أو إلى صلاتك، باعتبار أن الله عمَّ ولم يخص فيحمل ذلك على العموم، فيقال: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} مطلقاً، سواء كان إلى صلاة أو إلى غيرها.

وقال قتادة: {الَّذِي يَرَاكَ} قائماً وجالساً وعلى حالاتك، وهذا أيضاً حمله على العموم، يعني أنه لا يختص بالصلاة، وممن عمم ذلك أيضاً مجاهد بن جبر.

قال: {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}، بعضهم يقول: وهو مروي عن مجاهد {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} يعني: في التصفح والنظر إلى المصلين، وسواء كان ذلك في داخل الصلاة أو في خارجها، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ثبت عنه أنه أخبر أنه يرى من خلفه في حال الصلاة، ويقلب بصره فيهم، {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} حمله على النظر إليهم، {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}، لكن في هذا بعد، والله تعالى أعلم.

فالأقرب هو ما ذكره ابن جرير -رحمه الله-، وقال به جماعة من السلف، {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} أي: معهم، يعني في صلاتك معهم، وتقلبك مع الساجدين حينما تقوم وتركع وتسجد، وليس المقصود بذلك النظر، ويدل على ذلك ما قبله أنه قال: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} أي: ويراك في حال كونك مع المصلين تصلي قائماً وقاعداً وتسجد وتركع، يراك في كل هذه الحالات، وهذا الذي رجحه الشيخ محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- وقال به كثير من أهل العلم، ولهذا قال هنا: قال قتادة: في الصلاة يراك وحدك ويراك في الجمع، يعني {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ} أي: وحدك، {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} أي: مع الجماعة، وهذا قول أكثر المفسرين.

وقوله: {وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ}: قال قتادة: {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ} قال: في الصلاة، يراك وحدك ويراك في الجَمْع، وهذا قول عكرمة، وعطاء الخرساني، والحسن البصري.

وقوله: {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} أي: السميع لأقوال عباده، العليم بحركاتهم وسكناتهم، كما قال تعالى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ} الآية.

[سورة يونس:٦١].

قال تعالى: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنزلُ الشَّيَاطِينُ * تَنزلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ * إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} [سورة الشعراء:٢٢١-٢٢٧].

يقول تعالى مخاطبًا لِمَنْ زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ليس بحق، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه، أو أنه أتاه به رئيٌّ من الجن، فنزه الله سبحانه جناب رسوله عن قولهم وافترائهم، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله، وأنه تنزيله ووحيه، نزل به ملك كريم أمين عظيم، وأنه ليس من قَبيل الشياطين، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم، وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة؛ ولهذا قال الله: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ} أي: أخبركم، {عَلَى مَنْ تَنزلُ الشَّيَاطِينُ * تَنزلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} أي: كذوب في قوله، وهو الأفاك الأثيم، أي الفاجر في أفعاله، فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين كالكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضا كذبة فسقة.

{يُلْقُونَ السَّمْعَ} أي: يسترقون السمع من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كذبة، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيتحدثون بها، فيصدقهم الناس في كل ما قالوه، بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء، كما صح بذلك الحديث، كما رواه البخاري عن عائشة -رضي الله عنها-: سأل ناسٌ النبي -صلى الله عليه وسلم- عن الكهان، فقال: ((إنهم ليسوا بشيء))، قالوا: يا رسول

الله، فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقا؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني، فَيُقَرقِرها في أذن وليه كقَرْقَرة الدجاجة، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة))[٦].

وروى البخاري أيضاً عن أبي هريرة -رضي الله عنه- يقول: إن نبي الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعانًا لقوله، كأنها سلسلة على صَفْوان، حتى إذا فُزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: لَلذي قال الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض))، وصفه سفيان بيده فَحَرّفها، وبَدّدَ بين أصابعه ((فيسمع الكلمة، فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر -أو الكاهن- فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء))[٧]، تفرد به البخاري.

وروى البخاري عن عائشة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((إن الملائكة تحدّث في العَنَان -والعَنَان: الغَمَام- بالأمر يكون في الأرض، فتسمع الشياطين الكلمة، فتَقُرُّها في أذن الكاهن كما تُقَرّ القارورة، فيزيدون معها مائة كذبة))[٨].

قوله -تبارك وتعالى-: {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنزلُ الشَّيَاطِينُ * تَنزلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ}، والأفاك هو كثير الإفك، وهو الكذب، كثير الكذب، {تَنزلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ} أي: كثير الآثام، {يُلْقُونَ السَّمْعَ}، قوله هنا: {يُلْقُونَ السَّمْعَ} يقول: أي يسترقون السمع من السماء، {يُلْقُونَ السَّمْعَ} يحتمل أن يكون ذلك حالاً من الشياطين، يعني أن الشياطين يلقون السمع، حال من الشياطين، والسمع مصدر، وتارة يكون المراد به المعنى المصدري، وتارة يراد به معنى اسم المفعول، فقوله هنا: {يُلْقُونَ السَّمْعَ} أي: الشياطين، {يُلْقُونَ السَّمْعَ} إذا قلنا: إن المراد به المعنى المصدري يعني {يُلْقُونَ السَّمْعَ} أي: حال كونهم مستمعين، يعني ينصتون، يسترقون السمع، يلقون السمع، الذي هو حاسة السمع، يعني ينصت، يسترق السمع، يصلون إلى السماء هكذا، كما صوَّرهم بأن بعضهم فوق بعض إلى أن يصلوا إلى السماء، سواء قلنا: إن السماء المراد بها السقف المحفوظ أو أن المراد بها السحاب، فإن ذلك يقال له سماء كما تدل عليه الرواية التي مضت آنفاً أن الملائكة ينزلون فيتحدثون في العنان، يعني السحاب، فالشاهد أن الشياطين يصعد بعضهم فوق بعض حتى يستمعوا إلى ما تقول الملائكة، {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ} [سورة الجن:٨-٩] للسمع يعني: للاستماع، يعني لاسترق السمع، ينصتون إلى ما تقول الملائكة، {يُلْقُونَ السَّمْعَ} يعني: حاسة السمع، وعبر بالإلقاء على سبيل المبالغة لشدة الإنصات، كما قال الله -عز وجل-: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ} [سورة ق:٣٧] من شدة الإنصات كأنه ألقاه لما يستمع إليه، وهذا يكون لمن يريد أن يكون في غاية الحرص على الاستماع فإنه يلقي سمعه بكليته للناحية التي يريد الاستماع لها، فهذا احتمال، وهو حال من الشياطين، ويكون السمع هنا باعتبار المعنى المصدري أي

---

٦ - رواه البخاري، كتاب الطب، باب الكهانة، برقم (٥٤٢٩).

٧ - رواه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة سبأ، برقم (٤٥٢٢).

٨ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده، برقم (٣١١٤).

الاستماع، ويحتمل أن يكون بمعنى اسم المفعول، يلقون السمع، هذا الذي يتلقونه ويأخذونه ويخطفونه من الملائكة يقال له أيضاً: سمع، الكلمة التي يتلقفها ويأخذها يقال لها: سمع، باعتبار أنها مسموع، سمعٌ بمعنى مسموع، يلقونه إلى الكهان، يَطرَح لهم يلقي لهم هذه الكلمة التي خطفها فيكذب معها مائة كما جاء في الحديث، سواء قلنا: إن الذي يكذب هو الشيطان، أو الذي يكذب هو الكاهن يكذب مع ما يلقيه له الشيطان، فيكون على هذا وهذا، يكون هذا حالاً من الشياطين، {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنزلُ الشَّيَاطِينُ * تَنزلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ}، تنزل الشياطين على كل أفاك، مثل الكاهن، {يُلْقُونَ السَّمْعَ} فإذا قلنا: إن الضمير يرجع إلى الشياطين، وليس المقصود الأفاك الأثيم، يعني هو الكاهن مثلاً الذي تنزل عليه الشياطين، يعني من الناس، {يلقون السمع} أي: الشياطين تلقي السمع فتخطف الكلمة فتلقيها للكاهن -ينصتون-، وفي مثل هذا يمكن أن تحمل الآية على المعنيين، {يلقون السمع} بمعنى ينصتون يعني الشياطين، على هذا القول هو حال من الشياطين، وهذا الذي يحصل من جراء ذلك: تلقف الكلمة التي سمعوها من السماء، يلقونها في الواقع، الحال للشياطين، فهذا كله دل عليه الدليل، كما في هذه الأحاديث التي مضت أنهم ينصتون كما في قوله: {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ} [سورة الجن:٩]، وكذلك أيضاً في الحديث الذي مضى، ويحتمل أن يكون ذلك {يلقون السمع} يعود إلى الكهان، {يلقون السمع} يعني: ما سمعوه، ما ألقته إليهم الشياطين، هذا الأفاك يلقي ما تلقَّفه من الشياطين ويزيد عليه مائة كذبة.

فهنا {هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنزلُ الشَّيَاطِينُ * تَنزلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ} فالشياطين تلقي السمع، تنصت أو تلقي المسموع، أو أن المقصود أن الأفاك كالكاهن يلقي ما سمع ويزيد معه مائة كذبة، {وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ} هؤلاء كذبة، وقال: {وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ} باعتبار أن غالب ما يقولونه كذب يزيدونه، قلّ من يصدق منهم، فإن الأفاك هو الكثير الكذب، وليس المقصود به الذي لا يصدق أبداً؛ لأنهم يلقون الكلمة التي تلقوها من السماء، وهذا الذي يُضَل به كثير من الناس، يذكرون الكلمة التي وقعت كما هي، أخبروهم عن أمر غيبي أنه سيحصل، فيذكرها الناس، فيقولون: قالوا لنا في يوم كذا كذا وصدَقُوا، وينسون الكذب كما هو الحال في بعض من يعبر الرؤى، أحياناً قد ينطق القرين على لسانه، فيحصل بسبب ذلك أحياناً إصابةٌ في أشياء محددة ودقيقة فيغتر بها الناس، وأما الأشياء الأخرى التي لا تقع فينسونها، ولا يذكرونها، وإنما يذكرون هذه التي أصاب فيها فيقولون: تذكّرْ حينما قال كذا.

وقوله: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: يعني: الكفار يتبعهم ضلال الإنس والجن، وكذا قال مجاهد -رحمه الله-، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهما.

وقال عكرمة: كان الشاعران يتهاجيان، فينتصر لهذا فِئَامٌ من الناس، ولهذا فِئَامٌ من الناس، فأنزل الله: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ}.

الغاوون في قوله: {يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} بعضهم يقول: رواة الشعر، وبعضهم يقول: الشياطين، وبعضهم يقول: السفهاء، وبعضهم يقول غير ذلك، وابن جرير -رحمه الله- عممه في كل من يوصف بالغواية، والغاوي هو الضال الزائغ عن الحق، والشيطان توعد {وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [سورة الحجر:٣٩]، فكل من اتبع الغي والضلال فهو غاوٍ، {يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ} يعني: أهل الغواية، وهذا يدل على أن اتباع الشعراء في الواقع اتباع

للشياطين، والله -تبارك وتعالى- يقول: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} [سورة الحجر:٤٢]، وهنا {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ}، فاتباع الشعراء هو من اتباع الشياطين، والمقصود بالشعراء هنا الشعراء الذين ليسوا على هدى، سواء كانوا من شعراء الكفار أو المنافقين، أو كانوا من الفسقة الجهلة من المنتسبين للإسلام الذين يتكلمون ويهرفون بما لا يعرفون، ويخوضون في كل شيء، وينسبون إلى أنفسهم أموراً لا حقيقة لها من أفعال تتصل بالشجاعة أو الجود أو البصر في الأمور أو كمال العقل والإدراك، أو كان ذلك من جهة أمور تتعلق بالفحش والغواية، {أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ}، تارة في الهجاء وتارة في التشبع بما لم يُعطَ، إلى غير ذلك، فهذا يطرب له فئام من الناس، وهذا يطرب له فئام من الناس، وهذا يصفق ويهتف له سفهاء، وهذا يصفق له سفهاء، وتجري على ذلك مهاترات ومنافسات وحماقات وضلالات من هؤلاء -أعني أهل الغواية- في هجْوهم، وضلالهم، وباطلهم الذي يصاغ بهذه الصياغة من المنظوم من الكلام، واليوم لهذا سوق رائجة كما هو معلوم، واستمع إلى ما يقوله كثير هذه الأيام في برامج خاصة، وقنوات خاصة، ومسابقات خاصة، وانظر إلى ملايين الناس الذين يتهافتون على هذه التفاهات والسفاهات، وإذا سمعت إلى كثير من هذا الشعر تارة تقول: هذا على لسان الجن أو كأنه على لسان الشياطين، أو كأن الشياطين تنطق معه، لا تكاد تفهم منه شيئاً، وتارة تقول: هذا مغموس في الضلالة، وتارة تقول: هذا لا يصدر إلا من شانئ مبغض لأهل الإيمان يهجوهم ويهجو علماءهم وأهل الفضل منهم، وتجد في مثل "شاعر المليون" من هذا أشياء وأشياء، فبعض ذلك يدخل في قوله تعالى: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ}.

وقوله: {أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ}: قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: في كل لغو يخوضون.

وقال الضحاك عن ابن عباس: في كل فن من الكلام، وكذا قال مجاهد وغيره.

وقوله: {وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ} قال العوفي، عن ابن عباس: كان رجلان على عهد رسول الله، أحدهما من الأنصار، والآخر من قوم آخرين، وأنهما تهاجيا، فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه -وهم السفهاء- فقال الله تعالى: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ}.

هذه الرواية لا تصح في سبب النزول.

والمراد من هذا أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- الذي أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر؛ لأن حاله مناف لحالهم من وجوه ظاهرة، كما قال تعالى: {وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ} [سورة يس:٦٩] وقال تعالى: {إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [سورة الحاقة:٤٠-٤٣].

وقوله: {إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}: قال محمد بن إسحاق، عن يزيد بن عبد الله بن قُسَيْط، عن أبي الحسن سالم البرّاد -مولى تميم الداري- قال: لما نزلت: {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ}، جاء حسان بن ثابت، وعبد الله بن رَوَاحة، وكعب بن مالك إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهم يبكون فقالوا: قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء، فتلا النبي -صلى الله عليه وسلم-: {إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} قال: ((أنتم))، {وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا} قال: ((أنتم))، {وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا} قال:

((أنتم))[٩]، رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، من رواية ابن إسحاق، ولكن هذه السورة مكية، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الأنصار؟ في ذلك نظر.

هذه الروايات لا يصح منها شيء، سواء هذه الروايات التي ذكرها، أو روايات أخرى لم يذكرها.

ولم يتقدم إلا مرسلات لا يعتمد عليها، والله أعلم.

ذكر في الأصل غير ذلك لكن من قبيل المراسيل.

ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم، حتى يدخل فيه مَنْ كان متلبسًا من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله، ثم تاب وأناب، ورجع وأقلع، وعمل صالحًا، وذكر الله كثيرًا في مقابلة ما تقدم من الكلام السيئ، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كذب بذمه، كما قال عبد الله بن الزبعرى حين أسلم.

المقصود أيها الأحبة أن هذه الأوصاف مقصودة لذاتها، فإن دعاوى التوبة، وما يُزعَم من أن فلاناً الذي كان يقول شعراً فيه إسفاف أو طعن في الإسلام وتشكيك في ثوابته أو إزراء على أهل الفضل والدين والصلاح أو ما أشبه ذلك لا تكفي هذه الدعاوى والشائعات التي تقال عن توبته، سواء كان شاعراً أو غير شاعر، والله -تبارك وتعالى- هنا في الشعراء قال: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا}، سواء قلنا: إن المقصود ذكروا الله كثيراً في شعرهم، ذكروه في شعرهم، بمعنى أن شعرهم متضمن للثناء على الله -تبارك وتعالى- ولتعظيمه، أو ذكروه أيضاً بقلوبهم بمراقبته -تبارك وتعالى- فيما يقولون، فيذكرونه بألسنتهم، وذكروا الله كثيراً بجوارحهم بالعمل الصالح، فهذا كله من ذكر الله -تبارك وتعالى-، أو قيل: إن المقصود بذلك لا يختص بالشعر، {وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا} أي: في سائر أحوالهم، في كلامهم وفي مخاطبتهم، وذكروه بجوارحهم بطاعته -تبارك وتعالى-، هذه الأوصاف مقصودة، الإيمان والعمل الصالح، {وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ}، فهؤلاء هم الذين استثنى الله -تبارك وتعالى- من أولائك الذين وصفهم بتلك الأوصاف التي ينبغي التنزه عنها {وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ}، هذا حال الشعراء، هذا هو الأصل في الشعراء إلا من استثني، {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا} فإذا أردت أن تعرف حال الشاعر فانظر إلى ما يقوله وما يرويه، أو ما ينشئه من الشعر، فإن كان فيه هذه الأوصاف، وانظر إلى حاله من الإيمان والعمل الصالح وكثرة الذكر، فهؤلاء هم الذين استثنى الله، ومن عداهم فهم ممن ذكر الله -تبارك وتعالى-، فمثل هؤلاء لا يستحقون الإعجاب والإطراء وأن تحمرّ الوجوه منافحة عن هذا أو ذاك، والحماسة لمثل هؤلاء الذين صغرهم الله -تبارك وتعالى-.

كما قال عبد الله بن الزبعرى حين أسلم:

يَا رَسُولَ المَلِيك إنّ لسَاني* رَاتقٌ مَا فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ**

إذْ أجَاري الشَّيْطانَ في سَنن الغَيِّ* ومَن مَالَ مَيْلَه مَثْبُورُ**

---

٩ - رواه ابن جرير الطبري في تفسيره (٤١٨/١٩).

يقول: أنا سأصلح ما أفسدتُ، حينما كان على الكفر، يقول شعراً في هجاء النبي -صلى الله عليه وسلم-، في هجاء الإسلام والمسلمين، يقول: أنا راتق ما فتقتُ، سأصلح ما أفسدت وأرقع ما خرقت حينما كنت في هذه الحال التي وصفها بالبور، ومجاراة الشيطان في سنن الغي.

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، كان من أشد الناس عداوة للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو ابن عمه، وأكثرهم له هجوًا، فلما أسلم لم يكن أحدٌ أحبَّ إليه من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وكان يمدح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعدما كان يهجوه، ويتولاه بعدما كان قد عاداه.

وهو أكثر الناس وأقرب الناس شبهاً بالنبي -صلى الله عليه وسلم- كان من أشد أعداء النبي -عليه الصلاة والسلام-، والأبيات المعروفة التي قالها حسان -رضي الله عنه-:

ألا أبلغْ أبا سفيانَ عني *** فأنتَ مجوّفٌ نخبٌ هواءُ

لا يقصد به أبا سفيان بن حرب والد معاوية -رضي الله عنه-، ليس هو المقصود إنما المقصود هذا، ابن عم النبي -صلى الله عليه وسلم-، الذي كان شاعراً، الذي يقول فيه حسان -رضي الله عنه- أيضا:

أتهجوه ولستَ له بكفء *** فشرُّكما لخيركما الفداءُ

كل هذا في أبي سفيان بن الحارث وليس في أبي سفيان بن صخر قائد المشركين، ليست فيه.

وقوله: {وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا} قال ابن عباس: يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين. وكذا قال مجاهد، وقتادة، وغير واحد، وهذا كما ثبت في الصحيح: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال لحسان: ((اهجُهم -أو قال: هاجِهم- وجبريل معك))[١٠].

وروى الإمام أحمد عن كعب بن مالك أنه قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: إن الله -عز وجل- قد أنزل في الشعّر ما أنزل، فقال: ((إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه، والذي نفسي بيده، لكأن ما ترمونهم به نَضْح النبْل))[١١].

نضح النبل يعني أنه شديد عليهم كالسهام التي ترمونهم بها، شديد الوقع شديد الأثر، ولهذا فإن من أعطاه الله ملكة في الشعر، فينبغي أن يسخر ذلك في نصر الإسلام وهجاء الكفار والمنافقين الذين يطعنون في الإسلام ويشككون في ثوابته بكل سبيل مستطاع، فيهجو هؤلاء من كاتبين وغيرهم، وذلك شديد الأثر عليهم.

وقوله: {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ}، كقوله تعالى: {يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ} الآية، وفي الصحيح: أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((إياكم والظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة))[١٢].

---

١٠ - رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٠٤١)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة -رضي الله تعالى عنهم-، باب فضائل حسان بن ثابت -رضي الله عنه-، برقم (٢٤٨٦).

١١ - رواه أحمد في المسند، برقم (٢٧١٧٥)، وقال محققوه: "إسناده صحيح على شرط الشيخين"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٦٣١).

١٢ - روه مسلم، بلفظ: ((اتقوا الظلم))، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، برقم (٢٥٧٨)، وأحمد في المسند، برقم (٦٨٣٨).

قال قتادة بن دِعَامَة في قوله: {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ} يعني: من الشعراء وغيرهم.

آخر تفسير سورة الشعراء، والحمد لله رب العالمين.